جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

توظيفُ التراثِ في شعْرِ عصام الغزالي
دراسة فنية تحليلية

إعداد
د. محمد أحمد عبد الرحمن
مدرس الأدب والنقد
في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة

(العدد الثالث والأربعون)
(الإصدار الأول-فبراير)
(الجزء الثاني (١٤٤٥هـ /٢٠٢٤م)

الترقيم الدولي للمجلة (ISSN) 2536- 9083
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٢٤/٦٢٧١م

توظيف التراث في شعر عصام الغزالي

محمد أحمد عبد الرحمن

قسم الأدب والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين، جامعة الأزهر، القاهرة، مصر.

البريد الإلكتروني: *mohamedsuleiman521.el@azhar.edu.eg*

الملخص:

يتناول هذا البحث ظاهرة أدبية حديثة في ساحة الإبداع الشعري، ألا وهي ظاهرة توظيف التراث في شعر في شعر عصام الغزالي، الذي استطاع بموهبته الشعرية أن يأخذ من ماضيه ما يُثري تجربته المعاصرة، وأن يقتبس ما في تاريخه من نصوص دينية، ونماذج حية، وشخصيات تراثية؛ لكي يُسقطها على الواقع المعاصر؛ ليُبرز التناقضات العجيبة في المجتمع، والمفارقات الغريبة بين الناس. وقد جاء هذا البحث ليسلط الضوء على هذه الظاهرة المبثوثة في شعر الغزالي، مبينًا أنماط هذا التوظيف وأنواعه، وكذلك أهم الدوافع والأسباب التي جعلت الشاعر يتكئ على تراثه؛ ليبرز ما في نفسه من مشاعر ذاتية، وأحداث خارجية، وقد جاء البحث في مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة بيّن الباحث من خلالها قدرة الشاعر على استدعاء التراث، وتوظيف ما فيه، وإسقاطه على الواقع المعاصر.

الكلمات المفتاحية : شعر، عصام الغزالي، توظيف التراث، التناص.

Employing heritage in the poetry of Issam Al-Ghazali

Muhammad Ahmed Abdel Rahman
Department of Literature and Criticism, College of Islamic and Arab Studies for Boys, Al-Azhar University, Cairo, Egypt.
E-mail *: mohamedsuleiman521.el@azhar.edu.eg*

Abstract:

This research deals with a modern literary phenomenon in the arena of poetic creativity, namely the phenomenon of employing heritage in poetry in the poetry of Issam Al-Ghazali, who was able, with his poetic talent, to take from his past what enriches his contemporary experience, and to quote religious texts, living models, and traditional figures in his history. ; In order to project it onto contemporary reality; To highlight the strange contradictions in society, and the strange paradoxes among people . This research came to shed light on this phenomenon spread in Al-Ghazali's poetry, showing the patterns and types of this use, as well as the most important motives and reasons that made the poet rely on his heritage. To highlight his inner feelings and external events, the research included an introduction, a preface, two sections, and a conclusion through which the researcher demonstrated the poet's ability to recall the heritage, employ what is in it, and project it onto contemporary reality.

Keywords*: Poetry, Issam Al-Ghazali, Employing Heritage.*

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وأصحابه، ومن اتبع هداه، وبعد.

فإن تراث العرب والمسلمين هو مجد عزتهم، وعامل نهضتهم، وأساس قوتهم، والأمة التي لا تراث لها أمة تعيش في التيه، وتغوص في الضلال، وتسير في طول الحياة وعرضها لا يفقه أبناؤها شيئًا، ولا يهتدون سبيلًا؛ ومن هنا كانت الدعوة إلى تراثنا العربي والإسلامي دعوة حتمية؛ وضرورة دينية وثقافية واجتماعية؛ إذ إن هذا التراث زاخر بنماذج مشرقة من شأنها أن تأخذ بالمجتمع إلى بر الأمان، ولما كان التراث بهذه القيمة الفنية والثقافية؛ كان منبعًا ثرًا للأدباء والشعراء، يستلهمون نماذجه، ويقتبسون نصوصه، ويستدعون شخصياته وأحداثه؛ لإسقاطها على عالمهم النفسي، وواقعهم المعيشي.

والمتأمل في طبيعة الشعر العربي المعاصر يجد أن للتراث بأنواعه وأنماطه حضورًا قويًا، وظهورًا جليًا، فقد رأى فيه الشعراء نماذج حية، تعبر عن آمالهم، وتصور آلامهم، وتجسد ما في نفوسهم من أحلام، ومن هنا ما انفكوا أن يستلهموا التراث الديني بما فيه من مفردات القرآن الكريم، وقصصه وتراكيبه؛ ليسقطوها على ما في واقعهم من أحداث معاصرة، بالإضافة إلى استدعاء ما في الحديث الشريف من صور ومضامين؛ لما فيها من نماذج معبرة، وصور مؤثرة، تصور ما في لواعجهم، وتعبر عما يكمن في خوالجهم.

ومن أبرز هؤلاء الشعراء المحدثين الشاعر عصام الغزالي، الذي جعل من التراث مصدرًا أساسيًا لاستلهاماته وتوظيفاته، فالناظر في تجاربه الشعرية يجد أن أنماط التراث وأشكاله كان لها نصيب كبير في تشكيل

الصور الشعرية، وتجسيد الرؤى الإبداعية؛ حيث استلهم التراث الديني بما فيه من قرآن كريم وحديث شريف، واستلهم كذلك التراث التاريخي بأحداثه وشخصياته، بالإضافة أيضًا إلى النماذج الأدبية الحية في الموروث الأدبي شعرًا ونثرًا، وظف الشاعر هذه الأنماط التراثية في شعره، واستطاع أن يسقطها على واقعه؛ لتعبر عما في قلبه من أحاسيس وأفكار، وفي هذا البحث إطلالة سريعة على شعر عصام الغزالي، وقد جعلته بعنوان:

(توظيفُ التراثِ في شعْرِ عصام الغزالي

دراسة فنية تحليلية).

وقد سرت في هذه الدراسة الموجزة على المنهج الفني، الذي يعتمد على تحليل الظواهر تحليلًا فنيًا، ويعمل على إبراز ما فيها من جماليات أسلوبية، وصور فنية، متكئًا كذلك على المنهج الاستنباطي في استخراج النماذج المختارة وتحليلها، بالإضافة إلى المنهج التاريخي والاجتماعي في بعض الأحيان؛ وذلك لكون هذه المناهج هي الأنسب لطبيعة الموضوع، وطريقة عرض الفكرة المطروحة.

وقد جاء البحث في مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، وذلك على النحو الآتي:

في المقدمة أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، ومنهج البحث وخطته.

وفي التمهيد تعريف موجز بالشاعر.

أما المبحث الأول فقد جاء بعنوان: (أنماط التراث في شعر عصام الغزالي)، وفيه ما يأتي:

- التراث الديني.
- التراث التاريخي.
- التراث الأدبي.

وجاء المبحث الثاني بعنوان: (دوافع توظيف التراث في شعر عصام الغزالي)، وفيه ما يأتي:

- الدافع الفني.
- الدافع النفسي.
- الدافع الاجتماعي.

وفي الخاتمة أبرز نتائج البحث.

وبعد فأسأل الله أن يغفر زلاتي، ويرفع درجاتي، وأن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يكتب لي القبول في الدنيا والآخرة، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلِّ اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الباحث

تمهيد

التعريف بالشاعر(١)

عصام الغزالي هو واحد من الشعراء العرب المحدثين في مصر، ذو اتجاه إسلامي، وحس ديني، تجلت في ثنايا دواوينه تجارب إبداعية عبر فيها عما يكمن في قلبه ويعتمل في وجدانه، ويعد شاعرًا من طراز خاص؛ حيث درس الهندسة، وتخرج في جامعة القاهرة عام ١٩٧٢م، ثم درس علوم الدين والشريعة الإسلامية، وتخرج في كلية أصول الدين بالرياض عام ١٣٨٩هـ ١٩٧٨م، فهو يمزج في ثقافته بين العلم والدين، وبين التجربة والوحي، ويملك بهذا أفقًا عريضًا، ومتسعًا للرؤية والتصور، وإذا أضيف إلى ذلك حس مرهف، وموهبة شعرية ساطعة؛ أدركنا لماذا هو شاعر من طراز خاص.

واسمه: أحمد عصام الدين الغزالي خليل، واشتهر بين الأدباء والشعراء باسم عصام الغزالي، ولد في المنصورة بمحافظة الدقهلية عام ١٩٤٥م، أتم تعليمه قبل الجامعي بمدينة المنصورة، ثم التحق بكلية الهندسة، وعمل بشركة كهرباء الرياض، ثم بالحرس الوطني السعودي لمدة عشرة أعوام، ثم عاد إلى القاهرة وافتتح مكتباً هندسيّاً عام ١٩٨٥ بمدينة المنصورة. شارك في الكثير من المنتديات الأدبية بمصر والرياض، ونشر قصائده في الصحف والمجلات العربية.

---

(١) ينظر ترجمة الشاعر ما يأتي:

- معجم البابطين، جـ٣، صـ ٥٠٢.
- كامل سلمان الجبوري (معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى سنة ٢٠٠٢م)، ١٥٤/٢، دار الكتب العلمية- بيروت لبنان.
- د/ حلمي القاعود (شعراء وقضايا...)، صـ٧٥.

وقد توفي عصام الغزالي في يوم الجمعة ٢٠٢٢/٢/١١م، وترك للمكتبة الأدبية تسعة دواوين، نشرها كلها في مكتبة دار الوفاء بالمنصورة، وهذه الدواوين كما يأتي:

- الشعر وردُ حدائقي. هوى الخمسين
- فستذكرون ما أقول لكم. اللهم هل غنيت.
- أهددكم بالسكوت. الإنسان والحرمان.
- دمع في رمال. بكت سندريلا وقالت نهى.
- لو نقرأ أحداق الناس.

المبحث الأول:

أنماط التراث في شعر عصام الغزالي

إن التراث العربي يعد مصدرًا مهمًا من مصادر الإلهام الشعري؛ إذ من خلاله يُشكل الشعراء تجاربهم، وبأدواته يبوح الأدباء عما يعتمل في خوالجهم، لا سيما إذا أحس الأديب بمعاناة معيشية؛ نتيجة انحطاط اجتماعي، أو تدهور اقتصادي، أو فساد سياسي، حينها يتكئ الشاعر إلى ماضي الأمة التليد، وتراثها العريق، ومجدها العتيق، يوظف من نماذج هذا التراث ما يعبر عن حالته النفسية، ويصور همومه القلبية في صور شعرية أخاذة، ونماذج إبداعية جذابة.

والمتأمل في الطبيعة الفنية لشعر عصام الغزالي يجد أن هذا الشعر مزيج من نماذج تراثية كثيرة، استطاع الشاعر من خلال ثقافته الدينية والعربية أن يوظف من التراث ما يعبر عما في نفسه من أحاسيس، وما يصور به ما في وجدانه من مشاعر، وقد جاءت تلك الأنماط التراثية في شعر عصام الغزالي على ثلاثة صور، وهي كما يأتي:

أولًا: التراث الديني

إن المطالع لمسيرة الشعر العربي على مر عصوره واختلاف أزمانه يجد أن للتراث الديني آثارًا بارزة، وتأثيرًا واضحًا على التشكيل الشعري، والأسلوب الإبداعي، فقد استلهم الشعراء المسلمون -في مهد الدعوة الإسلامية- مفردات القرآن الكريم وتراكيبه، وصوره ومضامينه، وقد كان هذا التأثر نتيجة إعجابهم الشديد ببلاغة القرآن الكريم وروعة نظمه، وجمال أسلوبه، وجودة سبكه، فنهلوا من معينه الذي لا ينضب، وصوره الأخاذة، وحججه المقنعة الداحضة، فتأثروا به، وضمنوا كلامهم شيئًا من مفرداته وجمله، واقتبسوا كثيرًا من كلمات القرآن، ومن أبرز النماذج على هذا قول حسان بن ثابت ردًا

على أبي سفيان بن الحارث حينما هجا النبي محمدًا – ﷺ –:(١)

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ ... وَعِنْدَ اللهِ فِي ذاكَ الجَزَاءُ
أتَهْجُوْهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ؟! ... فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الفِدَاءُ
هَجَوْتَ مُبَارِكًا بَرًّا حنيفًا ... أمِينَ اللهِ شِيْمَتُهُ الوَفَاءُ
فَمَنْ يَهْجُوْ رَسولَ اللهِ مِنكُمْ ... وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ

المتأمل في هذه الأبيات يدرك أن الشاعر متأثر فيها بأسلوب القرآن الكريم؛ حيث اقتبس الشاعر من أسلوب القرآن طريقة الرد على الخصوم، وكيفية الاحتجاج للرأي؛ وذلك في قول الله تعالى:﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ مريم: ٧٣، وإذا قرأت قول حسان أيضًا في رثاء النبي ﷺ: (٢)

عَزِيْزٌ عَلَيْهِ أنْ يَحِيْدوا عنِ الهُدى ... حَرِيْصٌ عَلَى أنْ يَسْتَقِيْمُوا وَيَهْتَدُوا
عَطُوْفٌ عَلَيْهِم لا يُثَنِّيْ جَنَاحَهُ ... إلى كَنَفٍ يَحْنُوْ عَلَيْهِمْ وَيَمْهِدُ(٣)

في هذين البيتين يتجلى الأثر القرآني واضحًا على أسلوب حسان؛ حيث اقتبس هذا الأسلوب البارع من قول الله تعالى:﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ التوبة: ١٢٨، وكذلك الحال أيضًا في شعراء المسلمين غير حسان، نجدهم متأثرين بأسلوب القرآن

---

(١) حسان بن ثابت الأنصاري (الديوان) صـ ٢٠، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

(٢)السابق صـ ٦٢.

(٣) لا يُثني جناحه: أي أن عطفه على الجميع، وهذا يتماشى مع كونه ﷺ رحمة للعالمين، إلى كنف: أي إلى ناحية، والمعنى أن الرسول ﷺ رحيم بالمؤمنين، لا يركن إلى نفسه منعزلًا عنهم، أو بعيدًا منهم.

الكريم، فينهلون من معينه، ويقتبسون من ضيائه ونوره، وقد كانت أغلب هذه الاستلهامات مجرد تأثر بلغة القرآن الكريم وأسلوبه، واقتباس لألفاظه، وتضمين لتراكيبه.

أما في العصر الحديث فقد استلهم الشعراء والأدباء النصوص الدينية في إبداعهم، ووظفوها في تجاربهم، وأسقطوها على واقعهم؛ لأنهم رأوا في هذا التراث نماذج معبرة عما يكمن في قلوبهم، ومصورة لما يختلج في نفوسهم، لا سيما بعد تدهور الواقع الاجتماعي والأخلاقي؛ الأمر الذي جعل الشاعر العربي المعاصر يعيش حالة نفسية مضطربة، أقضت مضجعه، وأرقت وجدانه؛ نتيجة ما يكابده في مجتمعه الخارجي من هموم وأحزان.

والشاعر عصام الغزالي أحد هؤلاء الأدباء، الذين تمردوا على أخلاقيات المجتمع، وتردي الأوضاع السياسية والاجتماعية؛ فجعل من التراث الديني أداة لقاموسه الشعري، ووسيلة لبناء قصائده الإبداعية، ونظرًا لثقافة الشاعر الدينية؛ اتكأ على التراث الديني الإسلامي، فاستلهم آياته وتراكيبه، ووظف ألفاظه ومضامينه، وأسقطها على واقعه المعاصر، ونقل تلك التراكيب من سياقاتها التي وردت فيها إلى سياقات جديدة، تعبر عن هم الشاعر، وتجسد ما يعانيه من أحزان وآلام، وما يتطلع إليه من أحلام وآمال.

ولعل أول ما يطالعنا في تجارب عصام الغزالي، والتي وظف فيها تركيبًا من تراكيب القرآن الكريم، وجزء آية من آيات الذكر الحكيم أحد دواوينه التي جعل عتبتها الرئيسية بعنوان: (فستذكرون ما أقول لكم)، ولا يخفى على القارئ أن العنوان مأخوذ من جزء آية كريمة في سورة غافر، والتي وردت على لسان مؤمن آل فرعون، الذي وقف موقف الناصح الأمين لقومه، يبين لهم ضلالهم، ويرشدهم إلى الحق والخير وما فيه نجاتهم، وهو اتباع نبي الله موسى عليه السلام، يقول الله تعالى:﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ

وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ غافر: ٤٤، وظف عصام الغزالي هذه الآية الكريمة في تجاربه الشعرية التي بثها في هذا الديوان، ومعلوم أن العنوان هو أول ما يقع عليه نظر القارئ؛ لذلك اهتم به النقاد العرب قديمًا وحديثًا، لما يحمله من مضامين معرفية، وحمولات دلالية تعين المتلقي على فهم فحوى العمل الأدبي ومحتواه، والعناوين لا توضع اعتباطًا، أو بطريقة مباشرة خالية من الدلالات والإيحاءات، بل إنها توضع لتعين القارئ على سبر أغوار النص، واستنتاج ما فيه من دلالات وإشارات؛ لأنه عتبة رئيسية "تفرض على الدارس أن يتفحصها، ويستنطقها قبل الولوج إلى أعمال النص"(١).

ولا شك في أن فك شفرة العنوان، وتفكيك مفرداته يعين القارئ على الوصول إلى معان عميقة، ودلالات بعيدة، ويفتح له آفاقًا للتأويل والتفسير والتحليل؛ وذلك لا بوصف هذا العنوان جزءًا تابعا للنص" بل هو نص مواز، له آليات إنتاجه الخاصة، وفروض اختياره، والعنوان هو أول ما يصافح عين القارئ بشكله الطباعي، وإيحائه الجمالي، وتكوينه التركيبي"(٢). وقد تنبه الشعراء لهذه القيم الجمالية التي يتضمنها العنوان؛ لذلك استلهم عصام الغزالي عتبة ديوانه من نص قرآني، رأى فيه القدرة الكاملة على تصوير ما في نفسه من إحساس، وتجسيد ما في قلبه من شعور، حيث جعل من نفسه جهاز إنذار ينذر قومه ومجتمعه من هلاك أوشك أن يحل بهم، فوقف ينصحهم، ويدلهم على خطئهم، ويبرز آفاتهم، ويوضح لهم مصيرهم

---

(١) عبد القادر رحيم (العنوان في النص الإبداعي أسميته وأنواعه) مجلة كلية الآداب للعلوم الإنسانية والاجتماعية، عدد ٢-٣.

(٢) د- إبراهيم الزرزموني (تأويل الخطاب الشعري...) صـ ١٠٨.

المحتوم، وختامهم المشئوم؛ إن لم يأخذوا بنصيحته؛ ولذلك يقول في أول نص من نصوص هذا الديوان (الإهداء): [١]

يا أيها الجيلُ الذي أنا لم أرهْ
مَنْ سوف ينسفُ كلَّ إرثٍ أنكرهْ
سامحتُ، إلا في غدٍ هو يومُكمْ
وتركتُ مأثَرَةً لكم لا ثرثرةْ
هذا نذيرٌ ندَّ فيمن قبلكم
فسقَوهُ من دمهِ الذي في المحبرةْ
فإذا قرأتم شعرَه فترحموا
وستذكرون... إذا جرى ما قدَّره
إن جاء هذا اليومُ آملُ منكمو
ألا يكون سؤالُكم: من أخبره؟!
الأمرُ غيرُ الأمر فالتمسوا له
صِدقَ البصيرة لا الجهودَ المُهدَرَةْ

الدلالة الإيحائية تظهر بوضوح بين عتبة الديوان الرئيسية وهذه العتبة الثانوية؛ إذ إن الشاعر قد رأى في نفسه الناصح الأمين، والمخلص لقومه، الذي يرى ما لا يرونه، ويبصر بحدسه ما لا يبصرونه، فيتنبأ بما هو معلوم ومحتوم من غضب عارم يهز أرجاء المجتمع، وتمرد على سلبياته وآفاته؛ فلذلك يخاطبهم بصوت مؤمن آل فرعون: (فستذكرون ما أقول لكم)؛ ثم يأتي الإهداء ليزيد الأمر وضوحًا؛ حيث يرى عصام الغزالي أن نصائحه وتوجيهاته سوف يدركها قومه من بعده، وسيعرفون أنه

(١) عصام الغزالي (فستذكرون ما أقول لكم)، صـ٧، دار الوفاء- المنصورة، الإصدار الأول ٢٠٠٥م.

كان محقًا؛ ولذلك يقول لهم ناصحًا ومنذرًا: هذا نذير ند فيمن قبلكم... وهنا نلمح اقتباسًا لنص قرآني آخر، وهو قوله تعالى:﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴾ (النجم: ٥٦)، ولا يخفى أن العلاقة الدلالية بين النص التراثي والنص الشعري واضحة وجلية؛ إذ إن الشاعر يدرك بحاسته القوية أن مصير الأمم التي حادت عن طريق الصواب، ومالت عن الصراط السوي إنما هو الهلاك والدمار، والفناء لا البقاء، ومن ثم ينذرهم ويحذرهم، عسى أن يدركوا حقيقة خطئهم، ونهاية طريقهم.

وقد استطاع الشاعر بقدرته الفنية، وموهبته الإبداعية أن يوظف التركيب القرآني في عتبة الديوان خير توظيف؛ إذ عبر هذا التركيب المأخوذ من القرآن الكريم عن الهموم التي يعانيها الشاعر، والقضية الاجتماعية التي يتبناها، ألا وهي قضية الإصلاح بين أبناء المجتمع، وأن يلتفت الناس إلى أن السير في الطرق الملتوية، والابتعاد عن الحق والخير مصيره الهلاك والدمار، وقد أدى العنوان الرئيسي للديوان هذه المهمة الجمالية، والدلالة الإيحائية؛ إذ من شأن أي مصلح وناصح أمين لقومه أن يتمثل في صورة مؤمن آل فرعون، فينادي فيهم، ويحذرهم، ويخبرهم بمصير من سبقهم، ثم تأتي عتبة فرعية داخل الديوان، وهي الإهداء، الذي يتمثل فيه الشاعر بزرقاء اليمامة، فيدرك بحدسه أن قومه سيعرفون صدق كلامه من بعد رحيله، وأنهم سيذكرون مقولته ونبوءته من بعد موته؛ ولذلك يخاطبهم قائلًا:(١)

فإذا قرأتم شعرَه فترحموا
وستذكرون... إذا جرى ما قدَّره
إن جاء هذا اليومُ آملُ منكمو

(١) عصام الغزالي (فستذكرون ما أقول لكم)، صـ٧.

ألا يكـــون ســـؤالُكم: مـــن أخبـــره؟!
الأمـــرُ غيـــرُ الأمـــر فالتمســـوا لـــه
صِـــدقَ البصـــيرة لا الجهـــودَ المُهـــدَرَةْ

ومعلـوم أن عصـام الغزالـي شـاعر ذو حـس إسـلامي، وثقافـة دينيـة، واطـلاع علـى مـا فـي التـراث مـن قـيم فنيـة وجماليـة؛ لـذلك شـاع توظيـف النصـوص الدينيـة فـي تجاربـه شـيوعًا واضـحًا، وقـد كانـت هـذه التوظيفـات فـي معظمهـا مـن القـرآن الكـريم والحـديث الشـريف، تلـك النصـوص التـي رأى فيهـا الشـاعر قـدرة فائقـة علـى تصـوير مـا فـي قلبـه مـن أحاسـيس، وقـدرة كاملـة علـى تجسـيد مـا يعانيـه مـن آلام وأحـزان، ولعـل مـن أبـرز هـذه التوظيفـات مـا ذكـره الشـاعر فـي قصيدة (سادن اللهب)، والتي يقول فيها: (١)

تبّـــت يـــدا (ملـــكٍ) وتـــبّ سـكبَ الوقـودَ علـى اللهَـب
ودعـــا اللصـــوص ليطفئـــو هُ فمـــا أفـــاد ومـــا كســـب
سَـــيَهارُ قـــائمُ عرشِـــه والنـــارُ تنهَـــبُ مـــا نهـــب

الشاعر في هذه القصيدة يتكلم عن أحد الملوك الذين ملكوا من الدنيا ما يجعلهم سادة القوم، وعلية الناس، فلم يكونوا على قدر المسئولية، ولم تمكنهم مكانتهم وقيمتهم من إصلاح المجتمع، وصلاح أبنائه، فكان شرهم أكثر من خيرهم، وضرهم أقرب من نفعهم، يخاطبهم الشاعر خطاب الناصح لهم، الذي ينذرهم بشؤم عاقبتهم، وسوء مصيرهم، فقوانين الكون لا تتخلف، وسنن الله لا تتبدل، من عاش بالإصلاح؛ وصل إلى النجاح، ومن عاش بالإفساد؛ ما ساد، ولا قاد، ومن هنا يوظف عصام الغزالي سورة من سور القرآن الكريم، وهي سورة المسد، التي توعد الله فيها أبا لهب بنار الجحيم والعذاب الأليم، قال تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ

(١) السابق، صـ ٥١.

مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ﴾ (المسد: ١-٥).

ومعلوم أن أبا لهب وامرأته قد وقع منهما إيذاء شديد للنبي ﷺ وصحابته الكرام في فجر الدعوة الإسلامية؛ فاستحقا أن تكون نهايتهما أليمة، وعاقبتهما وخيمة؛ جزاء ما قدماه من فساد وإفساد، ويجازى المرء بما قدم، وجزاؤه من جنس عمله، وقد استطاع الشاعر عصام الغزالي أن يوظف هذه السورة الكريمة في سياق جديد، وتجربة حديثة؛ حيث رأى أن المواقف متشابهة، والأحداث متماثلة، فمن أفسد في مجتمعه، وطغى بين الناس، وجعل الفساد ديدنه، والإفساد طريقه؛ كان كأبي لهب وامرأته في الإيذاء والإفساد، ونهايةُ من اتصف بذلك معلومة، وعاقبتُه محتومة، ألا وهي الهلاك في الدنيا قبل عذاب الله في الآخرة.

ولما كانت عتبة الديوان -فستذكرون ما أقول لكم- دالة على ما يحتويه من مضامين وتجارب؛ أنذر الشاعر في هذه القصيدة كل من سولت له نفسه أن يسير في ركاب المفسدين، أو يحتذي حذوهم بأن نهايتهم وخيمة، وعاقبتهم أليمة؛ لذلك يذكر أن مصير هذا الإنسان أنه سيهار قائم عرشه، والنار تنهب ما نهب، ومن هنا يوجه إليه الخطاب قائلًا: (١)

بشراك يا رأس النفا ... قِ وفي العِمالة ما ذَنَب
الله يكرهُ ما جنيـ ... ـتَ وإن زعَمْتَ لنا السبب
واللهُ يأبى أن يطو ... لَ بك الجلوسُ على الذهب
والله يشهد أن ظاهرَ ... كَ المُبَرَّأ قد كذب

(١) عصام الغزالي (فستذكرون ما أقول لكم)، صـ ٥١.

ومن ثم يتجلى للقارئ أن الشاعر قد استطاع أن يوظف النص القرآني في تجربة معاصرة، وسياق جديد، أرق وجدانه، وأقض مضجعه؛ فرأى في السورة القرآنية خير شاهد على تجسيد رؤيته، وتصوير قضيته، والتعبير عن همه ومعاناته؛ وذلك أنه ناصح أمين في بني قومه، يرشدهم إلى الخير، ويحدد لهم الداء، ويصف لهم الدواء، وينذرهم بسوء المصير إن لم يلتزموا بسبيل الحق والخير، ويبتعدوا عن طريق الضلال والشر.

وقد فطن الشاعر المعاصر عمومًا وعصام الغزالي على وجه الخصوص القيم الجمالية، والدلالات الإيحائية التي تمتلكها النصوص التراثية، وعلى رأسها القرآن الكريم والسنة النبوية؛ ولذلك اتكأ الشاعر على تلك النصوص؛ لعلمه أن "عناصر هذا التراث ومعطياته لها من القدرة على الإيحاء بمشاعر وأحاسيس لا تنفد، وعلى التأثير في نفوس الجماهير ووجداناتهم ما ليس لأية معطيات أخرى يستغلها الشاعر، حيث تعيش هذه المعطيات التراثية في وجدانات الناس وأعماقهم تحف بها هالة من القداسة والإكبار..."[١]، ومن هنا أكثرَ الغزالي في تشكيل لغته الشعرية من مفردات القرآن الكريم وتراكيبه، ويتجلى هذا الأمر وضوحًا في تجربة إبداعية أخرى بعنوان (أوراق اعتماد)، يقول في مطلعها: [٢]

أجل.. فارسُ الشوق لبَّى المنادي ألم تسمعي -بعدُ- خِببَّ الجواد؟
أنا قادمٌ من سُهادِ الليالي ومن رحلة النومِ فوق القتاد

(١) د/ علي عشري زايد (عن بناء القصيدة العربية الحديثة) صـ: ١٢١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٧م.

(٢) عصام الغزالي (بكت سندريلا وقالت نهى) صـ: ٩.

الشاعر في هذه القصيدة يعيش تجربة الغربة، والتي تؤرق النفس، وتقض المضجع، وتجعل الإنسان يعاني من آلام الحنين، ويكابد أشجان الشوق إلى موطنه الذي نشأ فيه، ووطنه الذي يكمن في قلبه، ويستكن في صميم وجدانه؛ ولذلك يصور في هذه القصيدة معاناته النفسية، وأشواقه القلبية، ويجسد آلام الغربة التي يقاسي ويلاتها، ويكابد أحزانها، وفي ثنايا هذه التجربة الشعورية تتدفق موهبة الشاعر الفنية، فيستلهم بعضًا من تراكيب القرآن الكريم؛ ليسقطها على حالته التي يعيشها، ويوظفها في همه الذي يعانيه؛ وذلك حينما يتكلم عن ثوبه الذي جعله رمز أصالته الوطنية التي يعتز بها، فيقول: (١)

وعلَّمتُه: أنْ يدًا تمنحُ النا ... سَ بالحبِّ خيرُ الأيادي
وأخطو بهِ الخطواتِ الهُوَينى ... فأنسابُ في كلِّ أفْقٍ ووادي
وأُلقي على شطِّ ربي همومي ... وألقي بنفسي يُصلَّي فؤادي
وأصحو على وحيهِ من شُرودي: ... (فإني قريبٌ) و(قل ياعبادي)
فهلْ تستطيعين أن تتبعيني ... ولله أسلمتُ -طوعًا- قيادي؟

في هذه الأبيات يتحدث الشاعر عن ثوبه الذي يلبسه، والذي جعله رمزًا لوطنيته، فكما أن الإنسان لا ينفك عن ثيابه أمام الناس؛ فكذلك لا يتخلى عن وطنيته التي يعيش معتزًا بها طيلة حياته، ومعلوم أن "استخدام الرمز في السياق الشعري يضفي عليه طابعًا شعريًا، بمعنى أنه يكون أداة لنقل المشاعر المصاحبة للموقف وتحديد أبعاده النفسية" (٢)، وعصام الغزالي يتحدث في هذه التجربة عن حياته في الغربة،

---

(١) عصام الغزالي (بكت سندريلا وقالت نهى) صـ: ١١.

(٢) د/ عز الدين إسماعيل (الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية)، صـ ١٧٣، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط/٥/ ١٩٩٤م.

وشدة حنينه إلى موطنه، وفي هذا الصدد تنتقل الدلالة اللغوية للثوب إلى دلالة أخرى إيحائية رمزية، من شأنها أن تعبر عما في قلب الشاعر من حب لوطنه، واعتزاز ببلده؛ ولذلك يعلّم هذا الثوب أو القلب (حب الوطن) أن خير الأيادي هي التي تمنح الناس بحب وسخاء، ثم يبين أنه يخطو بحبه لوطنه كل البلاد، ويجوب كل واد، وبينما هو كذلك إذ به يتذكر همومًا أثقلت فؤاده، وأحزانًا أرقت وجدانه، وفي أثناء هذا السياق الذي يتلاطم بالقلق الروحي، والأرق النفسي يستدعي الشاعر آيتين من القرآن الكريم، كلتاهما تبشر بالخير، يوظفهما في تجربته، ويسقطهما على حالته، وهما قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٦)، وقول الله عز وجل: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (الزمر: ٥٣).

جاءت الآية الأولى في سياق الحديث عن قرب الله عز وجل من عبده، وسرعة استجابة دعائه، إذا لجأ العبد إلى ربه؛ وجده قريبًا منه {فَإِنِّي قَرِيبٌ} أي"، إني قريبٌ وهو تمثيلٌ لكمال علمِه بأفعال العبادِ وأقوالِهم واطلاعِه على أحوالهم بحال من قُرب مكانُه..." [(١)]، وقد وظف الشاعر هذه الآية بدلالتها في تجربته المعاصرة، ونقلها من سياقها إلى سياقه النفسي؛ حتى يشعر براحة قلبية، وسكينة روحية؛ لأن الله يعلم حاله، ويسمع مقاله، ويجيب

(١) أبو السعود، (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)، ١/٢٠٠، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

دعاءه، وعلى هذا النمط جاءت الآية الثانية، ليوظفها الشاعر في موقفه الشعري، ويسقطها على عالمه النفسي والخارجي.

والمتأمل في السياق القرآني يجد أن آية الزمر تشعر القلب بالارتياح، وتنزع من النفس القلق والخوف؛ لأن الله يغفر الذنوب جميعًا؛ إذا كان العبد توابًا أوابًا؛ والآية الكريمة تدل على الرحمة من وجوه كثيرة "الْأَوَّلُ: أَنَّهُ سَمَّى الْمُذْنِبَ بِالْعَبْدِ، وَالْعُبُودِيَّةُ مُفَسَّرَةٌ بِالْحَاجَةِ وَالذِّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ، وَاللَّائِقُ بِالرَّحِيمِ الْكَرِيمِ إِفَاضَةُ الْخَيْرِ وَالرَّحْمَةِ عَلَى الْمِسْكِينِ الْمُحْتَاجِ. الثَّانِي: أَنَّهُ تَعَالَى أَضَافَهُمْ إِلَى نَفْسِهِ بِيَاءِ الإِضافة، فقال: يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا، وَشَرَفُ الْإِضَافَةِ إِلَيْهِ يُفِيدُ الْأَمْنَ مِنَ الْعَذَابِ. الثَّالِثُ: أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ ضَرَرَ تِلْكَ الذُّنُوبِ مَا عَادَ إِلَيْهِ، بَلْ هُوَ عَائِدٌ إِلَيْهِمْ، فَيَكْفِيهِمْ مِنْ تِلْكَ الذُّنُوبِ عَوْدُ مَضَارِّهَا إِلَيْهِمْ..." [1]. وقد استطاع عصام الغزالي بموهبته الفنية، وقدرته الشعرية أن يمزج بين حالته الشعورية وبين السياق القرآني؛ إذ إن الإنسان عندما تدلهم عليه الأمور، وتضيق به السبل، وتتراكم على نفسه الهموم والأحزان، فلا يجد منجى ولا ملجئًا من الله إلا إليه، وإذا رجع وتاب إليه؛ تاب الله عليه، وإذا سأل الله؛ وجده قريبًا من قلبه وروحه، وكأن الشاعر بعاطفته الدينية الجياشة يشعر القارئ بأن نوائب الزمان وأحداث الأيام مهما تكاثرت وتراكمت فإن الله عز وجل قادر على زوالها.

ولما كان الشاعر واثقًا في وعد ربه تعالى، وفي نصرة المظلوم؛ كان كثير اللجوء إلى الله عز وجل، لا سيما عندما يشعر أنه مظلوم، وأن حقه

---

(١) فخر الدين الرازي (التفسير الكبير)، ٤٦٤/٢٧، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠هـ.

مهضوم، ولا تخلو هذه التجارب من استدعاء نصوص دينية، وتوظيفها، وإسقاطها على واقعه النفسي، وعالمه الخارجي، ومن أبرز هذه الدفقات الشعورية قصيدة صغيرة له بعنوان (عدالة الطين)، والتي بث فيها لواعج قلبه، وغصات نفسه، وتمرده على مجتمع يكيل بمكيالين، فيخاطب هذا المجتمع قائلًا: (١)

أقاضيكم أمام الله فاحتفظوا بحجتكم إلى حين
فلا التزيينُ يُقنعُني بموقفكم ولا التخويفُ يُثنيني
ولا الأوراق تجعلكم على حقٍ بأصباغٍ وتلوينِ
ولا العدلُ الذي أرجوهُ عندكمُ فأطلبُ منه تمكيني
أحاسبُكم أمام اللهِ فانتظروا سيُحييكم ويُحيينِي
ويوقفنا ويسأل وهو علامٌ.. ويفصلُ في البراهين
أقاضيكم وحسبي اليوم أنْ خاصمتُ في رفقٍ وفي لينِ
وحسبي اللهُ في تأجيل مظلَمتي وفي إهدار تأميني
أقاضيكم.. وحسبي الله في عجزي أمام عدالة الطين

في هذه القصيدة تتجلى الرؤية الدينية عند الشاعر، وتظهر بوضوح ثقافته الإسلامية، ومدى يقينه في تحقيق وعد الله للمظلوم، ووعيده للظالم؛ حيث يطرح هذا النص "مظلمة خاصة وقعت على الشاعر، ولكنها –القصيدة– في الإطار العام تناقش قضية أوسع تتعلق بالعدالة المطلقة، والعدالة العرجاء، أو العدالة الظالمة التي لا تشفي غليل المظلومين، والشاعر يعلن هنا ثقته في العدالة المطلقة التي تتم أمام الله عز وجل، ويسحب هذه الثقة من العدالة العاجزة التي يكني عنها بعدالة الطين، وبين الثقة وسحب الثقة نجد

(١) عصام الغزالي (بكت سندريلا وقالت نهى) صـ: ٩٥.

المعجم القرآني أو المعجم الإسلامي يحكم البناء الشعري مفردة وتركيبًا وتصويرًا"[1]؛ حيث يبدأ الشاعر قصيدته بقوله: (أقاضيكم أمام الله)، وفي هذا التعبير إشارة إلى الثقة المطلقة في عدالة الله عز وجل، ومن ثم يخاطبهم: (فاحتفظوا بحجتكم إلى حين) في إشارة إلى أن عدالة الدنيا وإن حكمت لصالحهم فإن عدالة الآخرة لا تظلم ولا تجامل.

وتأكيدًا على تلك الثقة المطلقة في عدالة الله يعلنها الشاعر صريحة بأن الله حسبه، فيقول:(وحسبي الله في تأجيل مظلمتي... وحسبي الله في عجزي أمام عدالة الطين)، والمتأمل في هذا النص يجده مقتبسًا من قول الله ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾ آل عمران: ١٧٣، لا يخفى على القارئ أن ثمة علاقة نصية ودلالية بين البناء التشكيلي للقصيدة وبين الآية القرآنية المقتبسة، وتكمن العلاقة الدلالية في أن الشاعر ذو يقين مطلق في عدالة الله، ولا ثقة له مطلقًا في عدالة الدنيا التي رأى أنها عدالة الطين، ومن هنا كان "الإيمان الواثق بعدالة الله يختلف عن غيره من السلوكيات والمعتقدات، ولو تصورنا شاعرًا غير واثق بالعدالة الإلهية يواجه هذه المظلمة؛ فإن المرجح أنه سينتقم من الظالمين، الذين أهدروا تأمينه، أو على أحسن الفروض سينخدع بتزييفهم، ويستسلم لهم، وكلا الأمرين لا يتفقان مع الرؤية الإسلامية"[2] التي تجلت بوضوح في تجربة عصام الغزالي السابقة.

---

(١) د/ حلمي القاعود (شعراء وقضايا قراءة في الشعر العربي الحديث)، صـ ٨١، طبعة خاصة بالمؤلف، ٢٠٠٧م.

(٢) المرجع السابق، صـ ٨٢.

وعلى هذا النمط جاءت توظيفات عصام الغزالي للمعجم القرآني مفردات وتراكيبًا، تأثر بها، وجعل نصوصه الشعرية تستضيء بنورها، وأخرجها من سياقاتها التي وردت فيها إلى سياقات جديدة؛ لتعبر عما في نفسه، وتصور ما في وجدانه.

على أن ثمة تجارب شعرية اقتبس فيها الشاعر بعضًا من تراكيب القرآن وقصصه، ولكنها جاءت بطريقة تقريرة مباشرة خالية من الإيحاءات الدلالية والإشارات التأويلية، من ذلك قوله في قصيدة (رأس السنة):[١]

وأذكرُ ليلة الميلاد
وعصف الريح بالأوتاد
وخطوةَ مريم انتبذت به شرقًا عن الأوغاد
ودمعةَ مريمَ العذراء قد هامت على الآماد
وعوذةَ مريم العذراء بالرحمن في استنجاد
وطلعة مريم العذراء إشراقًا على الأمجاد
وجنيَ النخلة المسّاقط اقتاتت به فازداد
وأذكرُ فِريةَ الإلحاد
فأعبر برزخ الزمن

في هذه الأبيات يقتبس عصام الغزالي قصة من قصص القرآن الكريم، وهي قصة السيدة مريم العذراء، وميلاد السيد المسيح عليه السلام، والتي ذكرتها بالتفصيل سورة مريم، يوظف الشاعر هذه القصة القرآنية في سياق يناسبها، وهو الحديث عن رأس السنة الميلادية، وكأنه بهذا الاستدعاء

(١) ديوان بكت سندريلا... صـ ٩٦.

يعرّض بمن ضلوا طريق الحق، وانحرفوا عن الهداية والرشاد؛ فابتدعوا في دينهم ما ليس منه، وحرفوا الكلم عن مواضعه؛ فضلوا وأضلوا.

أما الحديث النبوي الشريف فقد وظفه الشاعر في بعض تجاربه بطريق مباشر حينًا، وبطريق غير مباشر حينًا آخر، ولا يخفى على أحد أن الحديث الشريف في المرتبة الثانية من البلاغة والبيان بعد القرآن الكريم، وعندما نرصد الملامح الفنية في البلاغة النبوية ندرك أن المصطفى -ﷺ- قد أوتي جوامع الكلم، وأنه لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، "فالملامح الفنية في الحديث النبوي ليست صنعة لفظية، وليست خيالًا تصويريًا يمليه الشعور، ويُشكله الإحساس الفردي، وإنما المعنى والمبنى يمتزجان في الحديث النبوي الشريف، والفكر والأسلوب يتعانقان في هذا البيان المشرق، ليقدما للبشرية المنهج الإسلامي السديد، المنبثق من هدي القرآن العظيم، فالحديث النبوي يعد في القمة من البلاغة العربية، وهو نموذج فريد للبيان العربي الدالّ المفيد"(١)، ولا ريب في ذلك؛ فإن النبي -ﷺ- أفصح الناس لسانًا، وأوضحهم بيانًا، وهو الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه، "لا يتكلف القول، ولا يقصد إلى تزيينه، ولا يبغي إليه وسيلة من وسائل الصنعة، ولا يجاوز به مقدار الإبلاغ في المعنى الذي يريده، ثم لا يعرض له في ذلك سقط ولا استكراه؛ ولا تستزله الفجاءة وما بيده من أغراض الكلام عن الأسلوب الرائع، وعن النمط الغريب والطريقة المحكم، بحيث لا يجد النظر إلى كلامه طريقًا يتصفح منه صاعدًا أو منحدرًا..."(٢).

---

(١) د/ صابر عبد الدايم (الحديث النبوي رؤية فنية جمالية) صـ ٢١، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، بدون تاريخ.

(٢) مصطفى صادق الرافعي (تاريخ آداب العرب) جـ٢ صـ ١٨٦، دار الكتاب العربي، بيروت.

وقد فطن الشعراء والأدباء تلك القيم الفنية والجمالية للأحاديث النبوية؛ فأخذوا ينهلون من معينها، ويقتبسون من مفرداتها وتراكيبها ومضامينها، استلهامًا وتوظيفًا وإسقاطًا، وعصام الغزالي واحد من هؤلاء الشعراء، الذين تأثروا بروعة البلاغة النبوية؛ ولذلك اتكأ في تشكيل بعض تجاربه على بعض النصوص الحديثية؛ لإسقاطها على تجربته الشعرية، ورؤيته الفنية، ومن هذه التجارب التي وظف فيها الشاعر حديثًا نبويًا قوله في قصيدة (سقطت سهوًا)، وهي تجربة وجدانية غزلية، يبث فيها لواعج قلبه، واعتصار وجدانه بالحب والهوى، ويخاطب فيها نفسه على سبيل التجريد يقول:(١)

لا تكتبْ بيتًا في الشكوى إني حذّرتُكَ أن تهوَى
فاخترتَ طريقًا مسدودًا لا وصلٌ فيه ولا نجوى
لكن إحساسٌ مسروقٌ في ذنبٍ نقطفُه عفوا
الخطوةُ فيه بلا زادٍ والغيمةُ فيهِ بلا جدوى

في هذه الدفقة الشعورية يتحدث عصام الغزالي عن آلام الحب، وأشجان الهوى والهجر، وكيف أن الإنسان العاشق يعيش في قلق نفسي، واضطراب فكري؛ نتيجة صد محبوته وعدم وصالها؛ ولذلك يخاطب الشاعر نفسه خطاب الخبير الذي عانى من ويلات الحب وآلامه، وفي هذا السياق يحاول شاعرنا أن يستفيق من غفوته، ويفكر بعقله لا بقلبه يخاطب نفسه أيضًا فيقول:(٢)

استفتِ القلبَ ولا تقبلْ من قلبكَ حكمًا أو فتوى
قد مصَّت منه طهارتَه إن بثَّت في فمك الحلوى
في نور الشمس تلاقينا لن ندخلَ لليل القبوَا

(١) ديوان هوى الخمسين، صـ ١٩.
(٢) المصدر السابق، صـ٢٠.

المتأمل في هذه الأبيات يجد أن الشاعر يوظف حديثًا شريفًا؛ لكي يعبر عما في نفسه من إحساس تجاه الحب والهوى، وهذا الحديث المروي عن وابصة الأسدي أنه قال: " أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ لَا أَدَعَ شَيْئًا مِنَ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ إِلَّا سَأَلْتُهُ عَنْهُ، وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَسْتَفْتُونَهُ، فَجَعَلْتُ أَتَخَطَّاهُمْ، فَقَالُوا: إِلَيْكَ يَا وَابِصَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: دَعُونِي فَأَدْنُوَ مِنْهُ، فَإِنَّهُ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ أَنْ أَدْنُوَ مِنْهُ، قَالَ: «دَعُوا وَابِصَةَ، ادْنُ يَا وَابِصَةُ» مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، قَالَ: فَدَنَوْتُ مِنْهُ حَتَّى قَعَدْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: «يَا وَابِصَةُ أُخْبِرُكَ أَمْ تَسْأَلُنِي؟» قُلْتُ: لَا، بَلْ أَخْبِرْنِي، فَقَالَ: «جِئْتَ تَسْأَلُنِي عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ» فَقَالَ: نَعَمْ، فَجَمَعَ أَنَامِلَهُ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهِنَّ فِي صَدْرِي، وَيَقُولُ: «يَا وَابِصَةُ اسْتَفْتِ قَلْبَكَ، وَاسْتَفْتِ نَفْسَكَ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ..."[1]، وظف عصام الغزالي المحور الأساس الذي دار عليه الحديث الشريف، وهو قول النبي ﷺ: (استفت قلبك)؛ وذلك أن قلب الإنسان هو سيد أعضاء جسده، إذا صلح القلب؛ صلحت بقية الأعضاء، والقلب هو مناط الحب، ومحور ارتكاز الإيمان، يكابد آلام الهجر، ويعاني ويلات الشوق، ولذلك يوظف الشاعر هذا الحديث الشريف في تجربة عاطفية قلبية؛ حتى يذكر نفسه بربه، وحري بإنسان صاحب حس إسلامي، وثقافة دينية أن يستفتي قلبه؛ ليدرك أن الله مطلع على سره وعلانيته.

وتتجلى الرؤية الدينية لدى الشاعر بشكل أكثر في بقية أبيات القصيدة، وذلك حينما يصبِّر قلبه الذي اكتوى بنار الحب والعشق، ويذكّر نفسه أن جزاء من صبر على عشق، وعف نفسه عن مزالق الحب، ومات على ذلك؛ فله أجر عظيم، وخير

---

(١) الإمام أحمد بن حنبل (المسند)، مسند الشاميين، حديث وابصة بن معبد الأسدي، رقم ١٨٠٠٦.

عميم، وفي هذا يقول عصام الغزالي: [١]

لملـــــمْ أشـــــلاءك واتبعْنـــــي فأنـــــا لـــــن أصـــــمدَ أو أقـــــوَى
مَـــن عـــفَّ فمـــات علـــى حـــبٍ فشـــــهيدٌ، والحـــــور الســـــلوَى
الحـــــورُ العـــــينُ هـــــوى غـــــدِنا والجنـــــة فيـــــه هـــــي المـــــأوى

المتأمل في هذه الأبيات يدرك أن الشاعر يوظف حديثًا نبويًا آخر، "حوله كلام كثير من حيث صحته، ويرى كثيرون أنه موضوع"[٢]، وهو: (من عشق فعف فمات فهو شهيد)، وهذا التوظيف –وإن كان بحديث لا يصح– فإنه دل على فطرة الشاعر السوية، ومدى يقينه بأن متاع الحياة فان، وأن متاع الجنة هو الباقي؛ لذلك يؤثر ما في الآخرة من نعيم عظيم على ما في الدنيا من مغريات وملذات، حتى إن اكتوى قلبه بنار الحب، وتضرمت نفسه بآلام العشق؛ فإن الحور العين هن المتاع الباقي لمن عفوا أنفسهم عن المحرمات، وآثروا الآخرة على الأولى؛ فرضي الله عنهم ورضوا عنه.

ومن خلال هذه النماذج يتبين أن عصام الغزالي قد استطاع بموهبته الفنية، وثقافته الدينية أن يوظف من التراث الديني ما يخدم قضيته، ويجسد رؤيته، ويعبر عن همه الذي يعانيه، وتجربته التي يتبناها، وقد دلت هذه التوظيفات على قدرة الشاعر على اختيار ما يتماشي مع تجربته من نصوص دينية؛ ليسقطها على دفقاته الشعورية، وتجاربه الإبداعية.

ثانياً: التراث التاريخي

يعد التراث التاريخي بما فيه من أحداث وشخصيات ونماذج مصدرًا زاخرًا

---

(١) ديوان هوى الخمسين، صـ ٢٠.

(٢) د/ حلمي القاعود (شعراء وقضايا...)، صـ ٩٤.

بطاقات إيجابية، وقيم فنية وأسلوبية، يستلهم منها الأدباء ما يصلح للإسقاط على الواقع؛ إذ إن التاريخ العربي والإسلامي مصدر فخر الأمة، وعامل قوتها، وأساس نهضتها، "واستحضار التاريخ واستلهام معطياته الدلالية في النص الشعري يُنتج تمازجًا، وتداخلًا بين الحركة الزمنية"(١)؛ حيث ينسكب الماضي بكل إشاراته وأحداثه على الحاضر بكل ما فيه من تناقضات وسلبيات وإيجابيات؛ وذلك لأن "التاريخ في كثير من الأحيان يمثل القناع الأمثل؛ لبث مواقف الشاعر المتغايرة نحو بعض قضايا الأمة العربية؛ ولأنه يبحث في ثنايا التاريخ عن بطولات يستحث بها البطولات المهزومة في واقع الأمة العربية، أو لأنه يستمد مشروعية آرائه في ذهن المتلقي من خلال استلهامه لأحداث التاريخ وشخصياته". (٢)

والمتأمل في الشعر العربي المعاصر يجد أن الشعراء قد استلهموا التاريخ بما فيه من أحداث وشخصيات، ووظفوها في تجارب معاصرة؛ إما لشحذ الهمم، واستنفار النفوس، وغرس القيم في أبناء المجتمع، وإما لإسقاط ما في لتراث التاريخي على واقع الحياة؛ لإبراز التناقضات والانحرافات التي تعتري المجتمع، أما الشاعر عصام الغزالي فقد امتزجت كثير من تجاربه الشعرية بأحداث وشخصيات تاريخية، لها في وجدان الأمة حضور وقبول، ومن أبرز هذه النماذج قصيدته التي بعنوان (صلاح الدين يعتذر)، والتي يقول فيها: (٣)

---

(١) يُنظر: د/ رجاء عيد (لغة الشعر العربي المعاصر: قراءة في الشعر العربي المعاصر) صـ ٢٠١، منشأة المعارف- الإسكندرية، ط/١ بدون تاريخ.

(٢)- هند سعيد سلطان (التناص التراثي في روايات غازي القصيبي دراسة نقدية تحليلية) صـ: ٩٥-٩٦. ط: جامعة الملك سعود- المملكة العربية السعودية ١٤٣٥هـ ٢٠١٤م.

(٣)- ديوان (الشعر ورد حدائقي)، صـ ٥٥.

وتـــــدري أنهـــــم وعـــــدوا.. أتـــــدري أنهـــــم نكثـــــوا؟!
بنَوهـــــا، وهْـــــيَ أمهمـــــو، ومـــــا بالمـــــأزقِ اكترثـــــوا!
فـــــلا (المليـــــار دولارٍ) لأهـــــل القـــــدس قـــــد بعثـــــوا
ولا خاضـــــوا لهيـــــبَ الحـــــرب حتـــــى يفصـــــلَ الخبـــــثُ
ولا كفـــــوا عـــــن الإعـــــلان جمعًـــــا أنهـــــم بحثـــــوا
وإجماعًـــــا علـــــى مَرْقَـــــى صـــــلاح الـــــدين قـــــد لهثـــــوا!

يتجلى التوظيف واضحًا في هذه القصيدة من خلال عنوانها وبنيتها الداخلية؛ حيث وظف الشاعر في عنوان نصه شخصية تاريخية لها مكانتها في وجدان الأمة، وهو صلاح الدين الأيوبي، وتوظيف الشخصية معناه: "استخدامها تعبيرًا لحمل بُعْدٍ من أبعاد تجربة الشاعر المعاصر، أي أنها تصبح وسيلة تعبير وإيحاء في يد الشاعر، يعبر من خلالها أو يعبر بها عن رؤيته المعاصرة"(١). والمتأمل في القصيدة يجد أنها دفقة شعورية تتكثف بالتمرد على الواقع، وعدم الرضا بما في المجتمع من سلبيات وانحرافات وتناقضات؛ لذلك جاء العنوان معبرًا عما في القصيدة من أحاسيس ومشاعر، فاعتذار صلاح الدين في الحقيقة أمر غير ممكن، وشيء لا يحدث عقلًا، غير أن الشاعر قد جعله ممكنًا؛ لإسقاط هذا التناقض على الحالة السياسية التي كانت آنذاك؛ فالعرب قد تكالب عليهم ذئاب البشر، والاحتلال كبل أبناء مجتمعاتهم، وقيد حريتهم، واستولى على خيرات بلادهم، والمفارقة العجيبة أن من يقودون الأمة في سبات عميق، قد نكثوا عهودهم، ولم يوفوا بوعودهم، ولم يخوضوا الحرب حتى يستأصلوا الخبث من جذوره، ولم يكفوا عن الإعلان أنهم قد بحثوا، وأنهم

(١)- د/علي عشري زايد (استدعاء الشخصيات التراثية) صـ: ١٥.

على مرقى صلاح الدين قد لهثوا!

وفي إشارة من الشاعر إلى أن النصر لا يأتي بشعارات جوفاء، أو كلمات عرجاء، وإنما بعمل دؤوب، ومواصلة الجهود بالجهود، أما من يتصفون بالكذب وخداع الناس، ووعدهم، فلن يحققوا لهم صرفًا ولا نصرًا، وفي هذا يقول الشاعر:(١)

فقولوا: لن يعيد القدسَ مُقسمُهم فكم حنثوا!
تعودُ القدسُ إن ينبت على تيجانهم شعثُ
وإن حجوا إلى المسرى ولا فسقٌ ولا رفثُ
ولا بطشٌ ولا كذبٌ ولا في عقدةٍ نفثوا
ولا غشوا رعاياهم ولا في البحر قد حرثوا

في هذه الجو المتلاطم بالتمرد على الواقع، والتشاؤم من تناقضات المجتمع وسلبياته يستبشر الشاعر بالمستقبل، ويتفاءل ما هو آت، ولكن بشرط أن يهتم أبناء الأمة بأمتهم، ويرفعوا من شأن وطنهم، ويكدوا ويعملوا من أجل رفعة دينهم، ونهضة وطنهم؛ ولذلك يشحذ الشعر عزائمهم، ويستثير نشاطهم، ويستنهض قوتهم، فيقول: (٢)

صلاح الدين موجود، وما لبطولة جدثُ
ولكن كيف يأتينا وكل أمورنا عبثُ؟!

ومن نماذج توظيف التراث التاريخي أيضًا في شعر عصام الغزالي قوله في قصيدة (يعيش الإنسان): (٣)

---

(١)- ديوان (الشعر ورد حدائقي)، صـ ٥٥.
(٢)- السابق، صـ ٥٥.
(٣)- ديوان (بكت سندريلا..)، صـ ٣٧.

لـــو يهتـــف فيـــك (أبـــو ذرٍ): مـــا بعـــدَ الجـــوع اطمئنـــانُ
ويقـــول الراعـــي: إن حـــادت نفســـي أو مـــال الميـــزانُ
فعلـــيكم أنـــتم تقـــويمي إذ طاعـــة عـــاصٍ عصـــيانُ
لـــو فينـــا مـــن قـــال الصـــدِّيقَ فـــرد.. وكنـــا مـــن كـــانوا
ســـيهاجرُ يومًـــا (عمـــارٌ) و(بـــلالُ) ويصـــدح (حســـانُ)
وســـيرجف (ســـعدٌ) أو (عمـــروٌ) ســـيعيدُ القـــدسَ الـــرحمنُ
وتعـــودُ حياتـــك هانئـــةً.. فيهـــا تخضـــرُّ الوديـــانُ
وتصـــــــــيرُ حقـــــــــائقَ لا كلمًـــــــــا:
الحـــــــــب.. العلـــــــــمُ.. الإيمـــــــــانُ.

والنمـاذج فـي توظيـف التـراث التـاريخي كثيـرة فـي شـعر عصـام الغزالـي، وقـد دلـت هـذه النمـاذج علـى قناعـة الشـاعر التامـة بـأن فـي التـاريخ نمـاذج مشـرقة مـن شأنها أن تشحذ العزائم، وتستثير الهمم، وتعبر عن هموم الذاتية والخارجية.

ثالثاً: التراث الأدبي

يعـد التـراث الأدبـي مصـدرًا زاخـرًا بطاقـات إيجابيـة، ونمـاذج حيـة، وأنمـاط جماليـة وأسـلوبية، اسـتلهمها الشـاعر المعاصـر، وأسـقطها علـى تجـارب جديـدة، ووظفهـا الشـعراء فـي نمـاذج معاصـرة، اسـتدلالًا علـى سـعة اطلاعهـم، وتعمـق ثقـافتهم، وشـدة تـأثرهم بمـن سـبقوهم مـن شـعراء وأدبـاء، وتوظيـف التـراث الأدبـي هـو تـداخل نصـوص أدبيـة قديمـة مـع نصـوص حديثـة، "بحيـث تكـون منسـجمة مـع الـنص الجديـد، ومعبـرة عـن إحسـاس الأديـب، ودالـة قـدر الإمكـان علـى الفكـرة التـي يطرحهـا، أو الحالـة الشـعورية التـي يجسـدها ويعبـر عنهـا"[١]، ومـن هنـا نظـر الشـعراء المعاصـرون إلـى التـراث نظـرة تقـدير وإجـلال؛ لمـا يتسـم بـه

(١) يُنظر: د/ أحمد الزعبي (التناص نظريًا وتطبيقيًا...) صـ ٥٠.

من قيم فنية وأسلوبية وجمالية، قادرة على التعبير عن رؤى معاصرة، وتجارب حادثة.

والمتأمل في الشعر العربي المعاصر يجد أن للتراث الأدبي فيه نمطين[1]، أحدهما هو إحياء التراث وتجديده، واحتذاؤه، والسير على نمطه، في طرق التعبير والتصوير والبناء التشكيلي؛ وذلك اعتزازًا بالماضي وتمجيدًا لمآثره، وتعظيمًا لقيمه. والثاني استلهام التراث بما فيه من طاقات فنية، وقيم أسلوبية وجمالية؛ وذلك لكونه أداة فعالة في التعبير عن الحاضر، وتعد مرحلة التوظيف والاستدعاء مرحلة ثانوية لإحياء التراث وتجديده؛ ذلك أنه لا يتأتى التأثر والتوظيف إلا بعد إحياء وبعث من جديد، "وهي مرحلة تتجاوز أنماط إحيائه واستلهامه إلى التعامل معه فنيًا، فتنقل رؤية الكاتب المعاصرة إلى العناصر التراثية التي يعيد إيجادها وتأليفها وفقًا لواقعه الجديد"[2].

ومن هنا انطلق الأدباء والشعراء يستلهمون نماذج تراثية من الأدب العربي القديم شعرًا ونثرًا؛ للتعبير عن قضايا معاصرة، بعد نقلها من سياقها التي وردت فيه إلى سياقات جديدة، وتجارب وليدة، والشاعر عصام الغزالي من أبرز الشعراء المعاصرين الذين تجلى في شعرهم صوت التراث الأدبي توظيفًا واستلهامًا وإسقاطًا، وقد جاءت هذه التوظيفات على شكل الاقتباس المباشر، أو التناص الجلي الواضح؛ ليضفي على تجاربه لونًا من ألوان الأصالة، وينقلها من أحادية الدلالة إلى دلالات جديدة، وتأويلات معاصرة.

---

(١) يُنظر: د/ نوال مساعدة (البناء الفني في روايات مؤنس الرزاز)، صـ ١٦٠، دار الكرمل، عمّان، ٢٠٠٠م.

(٢) د/ حسن علي المخلف (توظيف التراث في المسرح دراسة تطبيقية في مسرح سعد الله ونوس)، صـ ٦٤، دار الأوائل– دمشق، ٢٠٠٠م.

ومن أبرز هذه النماذج التي وظف فيها الشاعر التراث الأدبي قوله في قصيدة (مرثاة ملك عظيم)، وهي قصيدة شجية حزينة، يرثي بها أحد ملوك المملكة العربية السعودية، وهو الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود، تحدث فيها الشاعر عن مآثر هذا الملك ومحامده، وفي ثنايا أبياتها يوظف الشاعر شطر بيت من تراثنا الأدبي القديم، حيث يقول مخاطبًا هذا الملك:(١)

إني رأيتُك في الزمان يدًا له ... بيضاءَ مدَّ بها الرجاءَ وبلورَه
فمروءةُ الفرسانِ قد جددتَها ... في عالَمٍ ذبح الضميرَ وأرَّقه
وطبيعةُ الإسلامِ فيكَ رأيتُها ... في الوَعي إن تَخِذَ البساطةَ مَظْهَرَه
{وإذا المنيةُ أنشَبَتْ أظفارَها} ... ألفيتَ أكبادَ الرعيةِ مجمَرَةْ

في هذه التجربة المفعمة بالأسى والحزن على رحيل المرثي يوظف الشاعر شطر بيت من قصيدة تراثية، وهي قصيدة أبي ذويب الهذلي، التي رثى بها أبناءه، وبكى عليهم بكاءً حارًا، فيقول: (٢)

أَودى بَنِيَّ وَأَعقَبوني حَسْرَةً ... بَعدَ الرُقادِ وَعَبرَةً لا تُقلِعُ
وَلَقَد أَرى أَنَّ البُكاءَ سَفاهَةٌ ... وَلَسَوفَ يولَعُ بِالبُكا مِن يُفجَعُ
سَبَقوا هَوَيَّ وَأَعنَقوا لِهَواهُمُ ... فَتُخُرِّموا وَلِكُلِّ جَنبٍ مَصرَعُ
فَغَبَرتُ بَعدَهُمُ بِعَيشٍ ناصِبٍ ... وَإِخالُ أَنّي لاحِقٌ مُستَتبَعُ
وَلَقَد حَرِصتُ بِأَن أُدافِعَ عَنهُمُ ... فَإِذا المَنِيَّةُ أَقبَلَت لا تُدفَعُ
وَإِذا المَنِيَّةُ أَنشَبَت أَظفارَها ... أَلفَيتَ كُلَّ تَميمَةٍ لا تَنفَعُ

(١) ديوان (دمعٌ في رمال)، صـ٩٥.

(٢) أبو ذؤيب الهذلي (الديوان) صـ ١٣٨، تحقيق د/ أنطونيوس بطرس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

وظّف عصام الغزالي بيت أبي ذؤيب في تجربة معاصرة، وأخرجه من سياقه الذي ورد فيه، إلى سياق جديد، يتلاءم مع تجربة الشاعر، ويتناسق مع إحساسه، وشجن قلبه، ولا يخفى أن التماثل النصي بين التجربتين واضح من حيث الدال والمدلول؛ إذ إن أبا ذؤيب ذكر بيته في ثنايا رثاء أبنائه؛ للتعبير عن شدة حزنه، وحسرة قلبه على فقد أولاده، وعصام الغزالي ذكر البيت الموظَّفَ في سياق الرثاء أيضًا؛ للتعبير عما في قلبه من حزن وأسى، والجملة التي وردت في التجربتين هي جملة شرطية (وإذا المنية أنشبت أظفارها) جاء جوابها في قصيدة أبي ذؤيب (ألفيت كل تميمة لا تنفع)؛ للدلالة على أن الموت إذا جاء؛ فلا مرد له، ولا مفر منه، ولا تنفع الإنسانَ -الذي حان موته- أيُّ تمائم! في حين أن عصام الغزالي جعل جواب الجملة الشرطية قوله: (ألفيت أكباد الرعية مجمرة)؛ للدلالة على الحزن الشديد الذي ألمّ بالرعية؛ نتيجة فقد من كان يعولهم، ويسعى لقضاء حاجتهم، وإعانتهم على متاعب الحياة ومشاقها!

ومن هنا يتجلى للقارئ أن الشاعر المعاصر قد استطاع أن يوظف من التراث الشعري القديم ما يخدم هدفه، ويقوي حجته، ويعبر عن رؤيته، ويتضح الأمر بصورة أكثر حينما يوظف شطر بيت آخر في القصيدة ذاتها، وذلك عندما يخاطب المرثيَّ قائلًا: (١)

يا أيها الملك العظيمُ جمعتَ شمـ ـلَ المسلمين... وكان غيرُكَ بثَّرَه
{ولقد رأيتك والرماح نواهلٌ} منا مُحَنَّكَةً خطاكَ مُظَفَّرَةْ

حيث يوظف في هذين البيتين شطر بيت آخر من التراث الشعري القديم، وهو من قول عنترة في معلقته: (٢)

---

(١) ديوان (دمعٌ في رمال)، صـ٩٧.
(٢) أبو زيد القرشي (جمهرة أشعار العرب)، صـ٣٦٧، حققه وضبطه وزاد في شرحه: علي محمد البجادي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

ولقد ذكرتُكِ الرماحُ نواهلٌ *** مني وبيضُ الهند تقطُرُ من دمي

جاء بيت عنترة في سياق الحديث عن تجربة وجدانية غزلية، يعبر فيها عن خوالج قلبه، المفعم بالحب والشوق؛ حيث يبين لمحبوبته أنه يذكرها في أوقات الصفاء والشقاء، حتى في أثناء الحرب والقتال، بين الرماح التي تتطاير، والسيوف التي بالدماء تتقاطر، وإنسان كهذا حري به ألا ينسى معشوقته أو يتغافل عن ذكرها أو حبها. وقد وظف عصام الغزالي هذه الصورة الدالة على الحب العميق في تجربته المعاصرة في رثاء الملك فيصل؛ للدلالة على شدة الحزن، وعظيم الأسى، غير الغزالي قد استبدل كلمة (ذكرتك) بكلمة (رأيتك)؛ للإشعار بأنه رأى المرثيَّ مدافعًا عن أبناء الأمة ضد رماح الأعداء التي تصوب عليهم من كل اتجاه، فكان يقف ثابتًا، بقلب راسخ، ونفس شامخة؛ ولذلك استحق أن تبكي عليه الأمة في محنتها كما يقول الشاعر: (١)

وبكتْ فراقَكَ أمة في محنةٍ *** تحتاج مثلك في عبور (القنطرةْ)

دفنتك بين ضلوعها وتحسَّرَتْ *** وتفجَّعَت فيك الصدورُ المُهدَرَةْ

وفي قصيدة أخرى لعصام الغزالي يوظف من التراث الشعري القديم ما يخدم قضيته، ويعبر عن همه ورؤيته، وذلك في تجربة له بعنوان (الرياض)، يتحدث فيها عن حياته في المملكة العربية السعودية، وعشقه لها، وشدة حنينه إلى وطنه مصر، فيقول: (٢)

سلامٌ يا رياضُ على ذويكِ وحسبي أن شطرَ الأهلِ فيكِ

شممتُ هواءها وملأتُ صدري فهل حيَّاكِ صدرٌ يحتويكِ؟

---

(١) ديوان (دمعٌ في رمال)، صـ٩٧.

(٢) السابق، صـ٤٢.

قفي يا أخت (فيصل) خبِّرينا ... أهذا الفضلُ إرثُكِ من أخيكِ؟
جزاكِ الله خيرًا عن أيادٍ ... تُطَوِّقُني، فأصبِحُ من بنيكِ
ويا مصرُ العزيزةُ قبَّلَتْني الـ ... ـأمومةُ من فمٍ حانٍ كفِيكِ
{جزى اللهُ الشدائدَ كلَّ خيرٍ} ... أمَمْتُ من الأمومةِ مَنْ تليكِ

في هذه الأبيات يرسل الشاعر برقية حب وإعزاز إلى المدينة التي احتضنته؛ فأحس أنه من أبنائها، وأن الإقامة فيها كالإقامة في وطنه الأم؛ ولذلك يتحدث عنها بفخر واعتزاز، ويَعُدُّها وطنه الثاني بعد مصر الغالية، التي لا ينساها ولا تغيب عن خياله ووجدانه؛ ولذلك يخاطب مصر قائلًا : يا مصر العزيزة، قبلتني الأمومة من فم حان كفيك، في إشارة إلى أن الراحة القلبية، والسكينة الروحية التي حققها في غربته بالرياض، وفي خضم هذا الجو المفعم بالاعتزاز بوطنه الأساس مصر، ووطنه الثاني الرياض يوظف الشاعر شطر بيت من تراثنا العربي القديم، وهو قول الشاعر: (١)

جزى اللهُ الشدائدَ كلَّ خيرٍ *** عرفتُ بها عدوي من صديقي

وهو بيت جرى مجرى المثل؛ لما فيه من حكمة تدل على أن الأزمات تظهر معادن الرجال، وأن الشدائد تكشف أصالة الإنسان، إن كان قويَّ الإرادة والشكيمة، أم خائرَ القوَى ضعيف العزيمة، وقد أدرك عصام الغزالي ما لهذا البيت التراثي من دلالة وإيحاء؛ فوظفه في تجربته؛ ليشعر أنه ما ترك مصر العزيزة على قلبه ونفسه إلى بلد آخر إلا بعد أن عانى من ويلات المجتمع، وكابد من شدائد الأيام، فلم ير صديقًا في وقت الضيق، غير أنه ليس نادمًا على ما كابده من أحزان؛ لأن جزاء محنته كان منحة، ونتيجة صبره كان خيرًا؛ حيث كافأه الله تعالى بموطن لم يشعر فيه بغربة، ولم يعان

(١) نُسب هذا البيت إلى الإمام الشافعي، وقد بحثتُ عنه في ديوان الإمام فما وجدتُه.

فيه أي كربة، بل كان وطنًا عزيزًا على قلبه ونفسه كما هو الشأن مع مصر؛ ولذلك علل لدعائه بالخير للشدائد بأن قال لمصر: يممت من الأمومة مَن تليك؛ أي قصدت من الأوطان من تليك في المنزلة والمكانة.

وفي ذات القصيدة يوظف الشاعر شطر بيت آخر من تراثنا العربي القديم، وذلك حين يتحدث عن تعلق قلبه ونفسه بأرض نجد وهوائها: (١)

دعيني يا قصيدُ فكبريائي *** عنودٌ.. هل يعيها من يَعِيكِ؟!

{تمتَّعْ من شميمِ عَرارِ نجدٍ} *** وقل: هِبِّي وغيثٌ يقتفيكِ

لا يخفى على القارئ أن الشاعر هنا يوظف شطر بيت من قصيدة لقيس بن الملوح حين يقول: (٢)

أَقولُ لِصاحِبي وَالعيسُ تَهوي *** بِنا بَينَ المُنيفَةِ فَالضِمارِ

تَمَتَّع مِن شَميمِ عَرارِ نَجدٍ *** فَما بَعدَ العَشيَّةِ مِن عَرارِ

وظف عصام الغزالي شطر بيت ابن الملوح في نص جديد، وتجربة معاصرة؛ لما في هذا الشطر من قيمة دلالية معبرة عما في نفسه من حب وعشق لأرض نجد والرياض، وغير خاف على المتأمل أن ثمة تناسقًا بين النص السابق واللاحق من حيث الدال والمدلول؛ إذ إن التماثل النصي واضح، وقد وصل إلى التنصيص، في إشارة إلى أن الشطرة مأخوذة بنصها من قصيدة قيس بن الملوح، والتماثل الدلالي واضح أيضًا؛ حيث ورد النص القديم في تجربة تشع بالحب العميق لأرض الحجاز ونجد، وفي النص الجديد

---

(١) ديوان (دمعٌ في رمال)، صـ٤٣.

(٢) قيس بن الملوح (الديوان)، صـ٧٦، دراسة وتعليق يسري عبد الغني، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط/١/١٩٩٩م.

وظف الشاعر المعاصر شطر البيت في تجربة تدل على حبه العميق، وعشقه التام لأرض نجد والحجاز.

على أن نماذج توظيف التراث الأدبي الشعري في تجارب عصام الغزالي كثيرة، ويضيق المقام على حصرها وتحليلها، وقد جاء أغلبها توظيفات لأشطر شعرية من التراث الأدبي القديم والحديث، وكما وظف الشاعر الموروث الشعري؛ فكذلك الحال مع تراثنا النثري؛ ذلك أنه استدعى كثيرًا من الأمثال الموروثة، والحكم المنثورة؛ لما تملكه هذه الأمثال والحكم من طاقات إيجابية، ورؤى فكرية، رأى فيها الشاعر ما يدعم رأيه وقضيته، أو إبراز المغزى من وراء الحكاية، أو على سبيل التمثُّيل والاستشهاد؛ وذلك لإدراكه أهمية الأمثال وقيمتها لدى العرب الذين سجلوا فيها " شعورهم وتفكيرهم بتكثيف وإيجاز، فيما يشبه القوانين النافذة أو السائرة، التي لا يملك الفرد لها ردًا [1].

ومن أبرز هذه النماذج التي وظف فيها مثلًا عربيًا قديما قوله في قصيدة (المشي على العجين)، والتي يقول فيها: [2]

(تكاثَرَتِ الظباءُ على خَرَاشٍ ... فما يدْري خراشٌ ما يصيدُ؟!)
أصادفُ في الصعودِ وفي نزولي ... جميلاتٍ، فيغلبُني النشيدُ
فأرجعُ للتي في البيتِ أشدو ... فيُطلِقُ غيظَها اللحنُ الجديدُ
وكم في المصعد ابتسمتْ فتاةٌ ... فقالت فرحتي: ذاب الجليدُ
وقالت أم يوسفَ: ما لهذا الـ ... ـمراهِقِ لا يكُفُّ ولا يُريدُ؟!

(١) د/ أماني سليمان داود (الأمثال العربية القديمة دراسة أسلوبية سردية حضارية) صـ ٥، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.ط/١/ ٢٠٠٩م.
(٢) ديوان (فستذكرون ما أقول لكم)، صـ٦٢.

يغـــازلُ كـــل مـــن يَلْقَـــى ويَهـــذِي بأشـــــــعارٍ تَضُـــــرُّ ولا تفيـــــدُ!
يقـــول الشـــعر، حتـــى إن تـــأنّى يقـــول: متـــى الغَـــدَاءُ؟ وهـــل ثريـــدُ؟

في هذه الأبيات يتحدث الشاعر عن تجربة شعرية مر بها، وهي -كما تبدو- صورة هزلية يجسد فيها الشاعر ما لا يحصله الإنسان الذي يعيش مراهقة متأخرة، فيطلق لعينه وقلبه العنان؛ لكي يصطاد أحد الحسناوات الجميلات، ولكن هيهات هيهات له الحصول على شيء! وفي سياق هذه الصورة التي يرسمها الشاعر يوظف بيتًا شعريًا جرى مجرى المثل السائر، وهو قول القائل: (١)

تكاثرت الظباء على خراش *** فما يدري خراش ما يصيدُ؟!

وتدل قصة هذا البيت على أن رجلًا اسمه خراش خرج يومًا لصيد الظباء، فلم يظفر منها بشيء، ثم غلبه النوم فنام، فلما استيقظ رأى قطيعا من الظباء يدور حوله، فنثر كنانته ووجهها إلى إحدى الظباء، وكلما صوب في ناحية؛ ظهر له ظبي أسمن من أخيه، فانصرف إليه غيره، وظل خراش هكذا حتى فرت جميع الظباء من أمامه، فعاد إلى بيته دون أن يصطاد شيئًا، وأنشأ يقول هذا البيت: تكاثرت الظباء على خراش...

وعصام الغزالي في هذه التجربة يذكر أنه يصادف كل يوم في صعوده ونزوله جميلات يستثرن موهبته الشعرية والإبداعية، فيقول فيهن قصائد، ويغني لهن أناشيد، ثم يرجع إلى بيته وهو يشدو بتلك الأناشيد، ثم يذكر بعد ذلك موقف زوجته الغيورة منه، وقد وظف الشاعر هذا البيت الذي جرى مجرى المثل في تجربة معاصرة؛ للإشعار بأن الإنسان لا يحصل سوى ما قدره الله له من رزق حلال، يغدو في الحياة ويروح، وتسول له نفسه أمورًا

(١) أبو بكر الخوارزمي (الأمثال المولدة)، صـ ٣٣١، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٤٢٤هـ.

لا تحل له، فيجدها مهيأة أمامه، لكن حيرته تجعله، لا يتحصل على شيء، ويكون جزاؤه كجزاء خراش الذي تكاثرت عليه الظباء، فلم يدر لكثرتها ما يصيد.

ولم يكتفِ عصام الغزالي بتوظيف الموروث النثري المتمثل في الحكمة والمثل فقط، ولكنه استثمر ما في التراث الشعبي أيضًا، فأخذ يضمن بعض تجاربه شيئًا من هذا الموروث، الذي له في العرف الجمعي قبول وتأثير، ومن أبرز النماذج على هذا قول الشاعر: (١)

والنـاسُ تفـتحُ فـي صـباحٍ أعينًـا فترى الهزيمـةْ
ويُـدركُهم أمـلٌ لَكَـم حملَـتْ نفـوسٌ أن تُقيمَـهْ
ويقـال فـي الأمثـال: قـد عـادت لمـا تعتـادُ "ريمـه"

في هذه السطور يتحدث الشاعر عن تجربة قاسية مرت على الأمة العربية والإسلامية، وهي نكسة ١٩٦٧م، والتي أقضت النفوس، وأرقت القلوب، وجعلت الأمة تعيش أعتى مآسيها، وأشد أحزانها، وفي هذا الصدد يتحدث الشاعر عن الحلم الذي كان يراود أبناء الأمة من تحقيق النصر، واقتناص الظفر، لكنهم فتحوا أعينهم ليروا الهزيمة النكراء، وقد كان يدركهم أمل حملته نفوس عظيمة، لكن صنفًا من الناس لا يبالون بما حدث، تبلدت مشاعرهم، وقست قلوبهم، وصح فيهم المثل الشعبي القائل: (عادت ريمة لعادتها القديمة)، وهو مثل متداول على ألسنة الناس، ويضرب هذا المثل في الرجل الذي عاد إلى شيء قد أقلع عنه، وقرر ألا يرجع إليه، وقد وظفه الشاعر في هذه التجربة للإشارة إلى "عدم تغير القوم مع هزيمتهم المذلة،

(١) ديوان (لو نقرأ أحداق الناس)، صـ٥٧.

وعدم اعتبارهم بما مضى، وكأنه لا أمل في المستقبل، بل إحباط كامل، ويأس شامل!" [١].

ومن خلال ما سبق يتجلى أن الشاعر قد اتكأ على ما في التراث الديني والتاريخي والأدبي من قيم جمالية، ونماذج حية، وتجارب قوية، من شأنها أن تعبر عن أحداث معاصرة، قد أرقت وجدانه، وأقضت مضجعه، فنظر إلى التراث ووظف منه ما يتلاءم مع قضيته التي يتبناها، وهمه الذي يعانيه.

(١) د/ حلمي القاعود (شعراء وقضايا...)، صـ٩٦.

المبحث الثاني:

دوافع توظيف التراث في شعر عصام الغزالي

تبين مما سبق أن الشاعر العربي المعاصر قد رأى في نماذج التراث ما يتماشى مع رؤية معاصرة، وتجربة حادثة؛ ولذلك جعل من القيم الجمالية والفنية للتراث أداة أساسية في تشكيل التجارب الشعرية، والدفقات الشعورية، فاقتبس منها ما يدعم قضيته، ووظف من نماذجها ما يقوي حجته، ويعضد رؤيته؛ فجاءت القصائد الشعرية مكثفة بالرموز والإيحاءات، والدلالات والإشارات، التي تشعر بأن الشاعر مرتبط بموروثه الديني والثقافي والتاريخي، ومتشوق لما في القيم التراثية من نماذج العزة والافتخار، فوظف في شعره صورًا تراثية دينية وتاريخية وأدبية؛ ليشحذ بها العزائم، ويستثير بها الهمم، وينبه بها الغافلين، ويوقظ النائمين.

ومن هنا لم يكن توظيف التراث أمرًا اعتباطيًا، أو سهوًا وعاديًا، وإنما لهذه الاستدعاءات والتوظيفات أبعاد فنية، وأغراض جمالية، ودوافع دلالية، تدفع الأديب إلى استخدام هذه التقنية الأسلوبية، وعصام الغزالي واحد من هؤلاء، الذين تأثروا بما في التراث من قيم وطاقات، وقد كان لتوظيفاته دوافع كثيرة، من أهمها ما يأتي:

أولًا: الدافع الفني

يعد الدافع الفني سببًا أساسيًا في لجوء الشعراء إلى توظيف التراث واستدعائه؛ ذلك أن الشاعر المعاصر ينزع إلى "إضفاء نوع من الموضوعية والدرامية على عاطفته الغنائية؛ حيث ظل الشعر العربي ردحًا من الزمن تعبيرًا غنائيًا عن عاطفة ذاتية، ولقد أصبحت تجربة الشاعر في العصر الحديث أكثر تشابكًا وتعقيدًا من تلك التجربة البسيطة التي تتسع لها القصيدة الغنائية وتستوعبها، فحاول الشاعر المعاصر أن يضفي على الشكل

الفنـي لتجربتـه لونًـا مـن الدراميـة والموضـوعية؛ حيـث اسـتعار بعـض تكنيكـات الفنـون الموضـوعية الأخـرى؛ كفـن المسـرحية وفـن القصـة وفـن السـيمنا، فشـاعت فـي القصـيدة الحديثـة تكنيكـات كـالحوار وأسـلوب القـص، وتعـدد الأصوات، والمونولوج الداخلي والمونتاج...". (١)

ومـن هنـا لجـأ الشـعراء المعاصـرون إلـى اسـتخدام أنمـاط فنيـة متعـددة، متخـذين مـن وسـائل التـراث وأشـكاله صـورًا رمزيـة، ومعـادلات موضـوعية، وأقنعـة، يعبـرون مـن خلالهـا عـن خـوالجهم الذاتيـة، ويصـورون مـن خلالهـا مـا يعتمـل فـي قلـوبهم مـن مشـاعر وأحاسـيس، وقـد تجلـت هـذه الأنمـاط الفنيـة فـي شـعر عصـام الغزالـي؛ وذلـك باعتبـاره واحـدًا مـن الشـعراء المعاصـرين، الـذي جعلوا من التراث مصدرًا لتجاربهم، وسبيلًا لتصوير خوالجهم.

ومـن الآليـات الفنيـة التـي تجلـت فـي قصـائد عصـام الغزالـي آليـة الرمـز، وهـو "وسـيلة إيحائيـة مـن أبـرز وسـائل التصـوير الشـعرية التـي ابتـدعها الشـاعر المعاصـر عبـر سـعيه الـدائب وراء اكتشـاف وسـائل تعبيـر لغويـة..." (٢)؛ لكـي يثـري لغتـه، ويقـوي حجتـه، ويجعـل تجربتـه قـادرة علـى الإيحـاء والتلمـيح، بعيـدة عـن المباشـرة والتصـريح، ولعـل الشـاعر إلـى الرمـز؛ رغبـة فـي التفـنن والإبـداع، أو رهبة من بطش أو تنكيل، أو حبًا في إقامة الحجة والإقناع.

ومـن نمـاذج توظيـف التـراث فـي شـعر عصـام الغزالـي، والتـي يتجلـى فيهـا الرمـز بوضـوح وجـلاء قصـيدته التـي بعنـوان (حبيبتـي "سـنية")، وهـي قصـيدة كتبهـا الشـاعر فـي الريـاض يـوم ١٩٧٨/١/٢٦م، وهـي تجربـة حيـة، ودفقـة

(١) د/ علي عشري زايد (استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر)، صـ ٢٠.

(٢) د/ علي عشري زايد (عن بناء القصيدة العربية الحديث)، صـ ١٠٤، مكتبة الآداب- القاهرة، ط/٥/٢٠٠٨م.

شعورية، تشع بالإيحاء، وتتكثف بالرمز والإيماء، يوجهها الشاعر إلى صحفيٍ نكرة قد أساء بحقده إلى مصر وتاريخها؛ فجاء رد الشاعر مشبعًا بالرموز والإيحاءات، وأخذ يخاطب حبيبته (سنية) قائلًا: (١)

ضُمِّي أحزانَك، مَن يدري فالساعةُ عقربُها يجري
وعيونُ الحقدِ على مرمى عينَيْكِ، وفرسانُ الغَدْرِ
قُطَّاعُ البِيْدِ بلا زادٍ شُرَّاعُ الخِنْجَرِ في الظهر
يا أحلى الغيدِ كفَى وُدًا أثوابُكِ بيعَت مَن يشري
ابنُ أختُكِ قال: "تعرَّتْ لي كم زرتُ المخدَعَ في الفجر"

المتأمل في هذه الأبيات يجد أنها مكثفة بالرمز والتلميح، وبعيدة عن المباشرة والتصريح؛ ذلك أن الشاعر قد رمز إلى وطنه (مصر) بمعشوقته (سنية)، وأخذ يخاطبها خطاب المحب العاشق؛ لكي يرد عنها حقد الحاقدين، ويدفع عنها عيون الحاسدين، ولعل الدافع إلى استخدام الرمز في هذه القصيدة يكمن في وجود شاعرنا بمكان لا يأمن فيه مكر الحاقد؛ فأخذ يدافع عن معشوقته بطريقة فنية رمزية موحية؛ ليدفع عن نفسه الأذى والتنكيل، لا سيما أن الشاعر لم يصرّح باسم الصحفي الذي جرّح في مصر وأساء إليها، وفي أثناء هذه الصورة المكثفة بالرمز والتلميح يوظف عصام الغزالي التراث الديني، ويختار منه ما يخدم هدفه، ويدعم رأيه، ويقوي حجته، وذلك حينما أقام حوارًا بينه وبين حبيبته (مصر)، فقال لها: (٢)

يا بنتَ الحيِّ الشعبيِّ والأصلُ أصيلٌ كالجذرِ
قولي في شهقةِ سخريةٍ وضعي كفيكِ على الخصرِ:

(١) ديوان (بكت سندريلا)، صـ١٩.
(٢) السابق، صـ٢٠.

"مـــا كـــل الطيـــر لـــه لحـــمٌ ممضـــوغٌ.. مـــا كـــلُّ الطيـــرِ؟!
أنـــا أحْلـــى مـــن فـــي بلـــدتكُمِ يـــا نـــاسُ، ومـــا يعنـــي فقـــري؟!
هـــل ريـــمُ الشـــرقِ علـــى قـــدِّي؟ أو صِـــبْغُ الغـــربِ علـــى شـــعري؟

فـي هـذه الأبيـات يوظـف الشـاعر مـثلا مـن الأمثـال الشـعبية المتداولـة علـى ألسـنة النـاس، وهـو قـولهم: (مـا كـل الطيـر يتّاكـل لحمـه)، "أي مـا كـل طـائرٍ يؤكـل، والمـراد: ليسـت المخلوقـات سـواء، ولـو اتحـدت فـي النـوع، بـل فيهـا الخبيـث والطيـب" [١]، ويضـرب هـذا المثـل علـى لسـان مـن اعتـز بنفسـه، ووثـق فـي قوتـه، واعتـد بذاتـه ومكانتـه، وقـد وظفـه الشـاعر هنـا علـى لسـان محبوتـه (مصـر)؛ ردًا علـى مـن أسـاء إليهـا، وتطـاول علـى مكانتهـا، وتتـوالى التوظيفـات التراثيـة أيضًـا فـي هـذا الـنص المكثـف بـالرمز والإيحـاء، وذلـك حينمـا يسـرد الشـاعر مـا دار مـن حـوار بينـه وبـين تلـك المحبوبـة الغاليـة، فيقـول علـى لسانها:[٢]

لكنـــــي مُـــــرٌّ تجريحـــــي والشـــــوكةُ فـــــي قـــــاع البئـــــر
أعجِبـــتُم مـــن حُلْـــوٍ مُـــرٍّ ونـــزعتُم مـــن حقـــدٍ صـــبري؟
عُنـــواني: "الأزهـــرُ حارتنـــا :فـــاروق البـــاز"... بـــلا فخـــر
السـنُّ عليـه {أسـى- مينـا} والـرمحُ جـريحٌ يـا (عَمِـري)
والجـــرحُ عليـــه أمانينـــا لله -شـــهيدًا- يـــا زمـــري
والشـــامتُ فيمـــا عانينـــا يغلـــي فـــي الـــداءِ المستشـــري
كـم بـلَّ الريـقَ مـن (الزيـر) الـ ـــــمملوءِ بشـــريانِ النهـــر
لكـــن لـــم تعـــرفْ سُـــكرتُه فرقًـــا للمـــاء عـــن الخمـــرِ

(١) أحمد تيمور باشا، (الأمثال الشعبية)، صـ ٤١٠، مؤسسة هنداوي بالقاهرة، بدون تاريخ.
(٢) ديوان (بكت سنديريلا...)، صـ٢٠.

(تلـــــك الأيـــــام نـــــداولها) أقـــــرأتم: (إن مـــــع العســـــر)؟

يوظف الشاعر في هذه الأبيات -التي قالها على لسان محبوته- آيتين من القرآن الكريم، بمدلولهما وسياقهما؛ وذلك ليدعم قضيته، ويثري تجربته، ويحتج لرؤيته، وظف في الشطر الأول من البيت الأخير قول الله تعالى: {وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ}آل عمران: ١٤٠. وفي الشطر الثاني يوظف قول الله تعالى: {إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا}الشرح: ٦، نقل الشاعر هذين النصين من سياقهما ووظفهما في سياق جديد؛ لكي يرسل رسالة إلى ودوام الحال إلى من يجرّح في حبيبته (مصر)، أو يسيء إلى مكانتها أن الأيام دول، وأن دوام الحال من المحال، ومهما كانت حبيبة الشاعر في أزمة فهي قادرة -بإذن الله- أن تقوم من كبوتها، وتتبوأ مكانتها، وتحصل على عزتها ونهضتها، فلن يغلب عسر يسرين، فإن مع العسر يسرا، إن مع العسر يسرًا.

ومن خلال هذا الأنموذج[1] يتبين للقارئ أن عصام الغزالي استطاع أن يوظف التراث في نص مكثف بالرمز والإيحاء، وقد دفعته موهبته الشعرية، وذائقته الفنية، ورغبته في إثراء تجربته إلى اللجوء إلى التراث؛ ليحدث تفاعلًا بين تجربة جديدة فيها رمز وتلميح، ونص تراثي فيه قدرة على تصوير ما في النفس، وتجسيد ما في الوجدان.

ومن الوسائل الفنية التي اتكأ عليها شاعرنا في تجاربه التي وظف فيها التراث آلية المفارقة، وهي تكنيك أسلوبي يستخدمه الشاعر، و"يرتكز على

(١) استخدم عصام الغزالي الرمز كثيرًا في تجاربه التي وظف فيها التراث، منها قصيدة (ماذا تقول الساقية)، ديوان: (فستذكرون ما أقول لكم صـ١٧)، وهي تجربة استلهم فيها التراث الديني والتاريخي، وقصيدة (حجا في ورطة) (السابق صـ٢٤)، وغير ذلك من القصائد المبثوثة في دواوينه.

تحقيق العلاقة الذهنية بين الألفاظ: لعبة لغوية ماهرة وذكية بين طرفين: صانع المفارقة وقارئها على نحو يقدم فيها صانع المفارقة النص بطريقة تستثير القارئ، وتدعوه إلى رفضه بمعناه الحرفي" [١]. وقد لجأ عصام الغزالي إلى توظيف التراث واستدعائه؛ رغبة في إثراء نصه فنيًا ومعنويًا ودلاليًا؛ فعبر عن موقفه الشعوري باستخدام المفارقة، باعتبارها وسيلة فنية دالة على تمكن الشاعر من ملكته الشعرية، وموهبته الإبداعية.

ومن نماذج المفارقة في شعر عصام الغزالي، والتي وظف فيها نصًا تراثيًا قصيدته التي بعنوان (الكلاب)، وهي قصة منامية أو حلمية يرى فيها الشاعر حكاية عجيبة غريبة، يرويها في سطور القصيدة؛ ليصنع المفارقة بين عالم اليقظة وعالم الأحلام، يقول فيها: [٢]

رأيتُ في منامي*** تجسمت أمامي***حكاية غريبة
رأيت من رؤاه *** تحيط مَن رآه *** برهبة مَهيبةْ
وحوله الجلالة *** تكللت بهالة *** ورحمةٍ وطيبة
أشارَ كَيْ أُلَبِّيْ *** فخرَّ كلُّ قلبي *** بسجدةٍ مُجِيبَة

ثم يكمل الشاعر حكايته المنامية، وصورته الشعرية، فيوضح أنه كان "ضمن جماعة تطيع من رآه في المنام، وقد منح كلًا منه نفحة، وخص الشاعرَ بحديقة معشبة المروج، فدخلها ومن معه، مع أمر بالأكل منها وتجميلها، وهناك علامة عجيبة تحت كل دوحة تومض للمحظوظين، وكل ما عداها محرم. وهناك أيضًا حمامة ترقب السلوك، وتأمر الملوك، وتجمع الضريبة، وسعد الجميع بالحديقة والحمامة الرفيقة، ولكنّ واحدا خالف

(١) د/ نبيلة إبراهيم (المفارقة) صـ١٣٢، مجلة فصول، عدد/ ٣، سبتمبر ١٩٨٧م.

(٢) ديوان (الإنسان والحرمان)، صـ ٣٠ وما بعدها.

الرقابة، وضيع الأمانة، وأظهر الخيانة؛ فتبدل كل شيء، وتفجرت السماء، وأمطرت ترابًا، وأرسلت عذابًا، وصارت الحديقة مقابر عتيقة، وجاء الذباب، وأخذت الكلاب تتناحر حول عظمة كبيرة..." [1]، وتتجلى المفارقة في هذه القصيدة من خلال ما كان يعيش فيه هؤلاء الناس من عيش سعيد، وحياة هانئة، ولا شك أن من كان يعيش هكذا في نعيم مقيم؛ كان عليه أن يشكر ولا يكفر، وأن يحفظ ما هو فيه من سعادة وهناء؛ حتى لا تتحول النعمة إلى نقمة، ولكن المفارقة أن واحدًا من هؤلاء قد قام بالخيانة، وضيع الأمانة؛ فكان الجزاء نقمة السلب بعد نعمة العطاء.

وعلى هامش هذه المفارقة يصحو الشاعر من حلمه على نباح الكلاب في الواقع، فيقول: [2]

وأفزعت صباحي*** ضراوة النباح***وأيقظت نعيبه
وزلزلت كياني***وكدرت أماني***ومزقت وجيبه
ألا فمن يفسر*** بفطنة تبرر*** وخبرة نجيبة؟
ويكشف الرموز*** ليُخرِج الكنوز*** بنظرة لبيبة؟

وتتجلى المفارقة في هذه الصورة من خلال إبراز الصفات السلبية التي انتشرت بين أبناء المجتمع، كالأنانية، والأثرة، والخيانة، والرغبة والشهوة، وحب النفس، والعصيان، وكلاب اليقظة أشد ضراوة من كلاب الحلم، فكلاب الأحلام لا تؤذي من يراها، أما كلاب الواقع فلا يؤمن عقباها، ولعل المتأمل في ثنايا هذه القصيدة وتفاصيلها يدرك أن الشاعر يوظف -من طرف خفي- قصة قرآنية، وهي قصة آدم وحواء عليهما السلام؛ حيث "خصص الله لهما

(١) د/ حلمي القاعود (شعراء وقضايا...)، صـ٩٨-٩٩.
(٢) ديوان (الإنسان والحرمان)، صـ ٣٢.

الجنة بثمراتها وخيراتها، وحذرهما من شجرة الخلد أكلًا أو اقترابًا، ولكن شاءت إرادة الله أن يأكلا منها؛ فكان الجزاء هو الخروج من الجنة...والشاعر يستلهم القصة القرآنية بصورة فنية، ومن خلال رموز شفافة؛ ليصنع مفارقة عامة وشاملة في سلوك المجتمع أو الأفراد من خلال عنصري التكريم المرتبط بالطاعة، والضياع المرتبط بالمعصية..." [(١)]، ولا شك أن استخدام المفارقة في الصورة الشعرية دليل على تمكن الشاعر من موهبته الفنية، وقد استطاع عصام الغزالي أن يوظف القصة القرآنية بصورة ملفتة موحية في تجربة صنعت المفارقة بين الواقع والحلم، أو بين التكريم من أجل الطاعة، والضياع بسبب المعصية.

ثانياً: الدافع النفسي

لا شك أن الأديب عندما يصور ما يشعر به فإنما يعبر عن خوالج نفسه، وغصات وجدانه، ويعبر عما يمر به من مواقف حياتية، ودفقات شعورية، ومن هنا كان الأدب شديد الاتصال بالنفس البشرية، وقوي الصلة بخوالجها وما يعتصر فيه لواعجها، والشاعر العربي المعاصر كثيرًا ما ينتابه "نوع من الإحساس بالغربة في هذا العالم، وهذا الإحساس ناشئ عن شعوره بما يسود العالم الحديث من زيف وتعقيد وتصنع، وبعد عن عفوية الحياة الأولى وتلقائيتها وبساطتها، فكان هذا الإحساس بالغربة وبجفاف الحياة المعاصرة ونمطيتها وتعقيدها يدفعه إلى الهرب من هذا الواقع، ونشدان عالم آخر أكثر نضارة وبكارة..." [(٢)]، وهروبًا من هذا الواقع المليء بالتناقضات يلجأ الشاعر إلى التراث بما فيه من قيم روحية، ونماذج أسلوبية وتاريخية.

---

(١) ينظر: د/ حلمي القاعود (شعراء وقضايا...)، صـ٩٩-١٠٠.

(٢) ينظر: د/ علي عشري زايد (استدعاء الشخصيات التراثية...)، صـ ٤٢.

والشاعر عصام الغزالي قد وظف التراث كثيرًا في قصائده؛ هروبًا من عالم مليء بالتناقضات الغريبة، والمفارقات العجيبة، وقد كانت هذه التوظيفات التراثية في شعره نتيجة لمشاعر نفسية قد أقضت مضجعه وأرقت وجدانه كالتشاؤم من الواقع، والقلق من عواقبه، فاستدعى نماذج التراث وأسقطها على الواقع؛ لينبه الغافلين، ويستثير الهمم، ويحفز النفوس، ومن أبرز هذه النماذج الشعرية قصيدته التي بعنوان (صلاح الدين يعتذر)، والتي يوظف فيها شخصية صلاح الدين الأيوبي، الذي جعله الله سببًا في نصرة المسلمين وعزتهم، وقد وظفه الشاعر في هذه القصيدة لدافع نفسي، وهو التشاؤم من واقع مليء بالتناقضات والانحرافات؛ حتى أن صلاح الدين بنفسه يعتذر عن قيادة هذا المجتمع الذي حاد عن الطريق، وانحرف عن الجادة!!

يقول عصام الغزالي في هذه التجربة: (١)

وتدري أنهم وعدوا.. أتدري أنهم نكثوا؟!
بنَوها، وهْيَ أمهمو، وما بالمأزقِ اكترثوا!
فلا (المليار دولارٍ) لأهل القدس قد بعثوا
ولا خاضوا لهيبَ الحرب حتى يفصلَ الخبثُ
ولا كفوا عن الإعلان جمعًا أنهم بحثوا
وإجماعًا على مَرْقَى صلاح الدين قد لهثوا!

في هذه الأبيات تتجلى الرؤية التشاؤمية عند الشاعر؛ حيث لا يجد علاجًا لمجتمع تردت أخلاقه، وانحرفت سلوكياته؛ فأصبحوا بين الأمم كالأيتام على مأدبة اللئام، لا يحركون ساكنًا، ولا يخيفون عدوًا! وهذا الإحساس

(١) ديوان (الشعر ورد حدائقي)، صـ ٥٥.

بالألم هو قمة التشاؤم الناتج عن مأساوية الرؤية، وسوداوية الواقع أمام الشاعر، والتي عبر عنها في مقطوعة بعنوان (خرس)، قال فيها: (١)

لمن يا صديقي تدقُّ الجرس؟
وقد هان سيفي وبعتُ الفرس
وشاهدتُ أختًا لنا تُفترس
فما زاد أن صحتُ: أين الحرس؟
فلسطينُ يفديك منا الخرس!!

على أن هذه النظرة السوداوية لم تكن عند الشاعر على طول الطريق؛ إذ إن تجربة له يشع منها التفاؤل، ويستبشر فيها بالمستقبل، فيلجأ إلى التراث؛ ليستثير الهمم، ويبعث في النفوس الأمل، وينزع منها القلق والألم، وهي قصيدة (يعيش الإنسان) قالها الشاعر في يوم ١٩٧٣/٩/٤م، والتي جاء فيها قوله: (٢)

لو يهتف فيك (أبو ذرٍ): ما بعدَ الجوع اطمئنانُ
ويقول الراعي: إن حادت نفسي أو مال الميزانُ
فعليكم أنتم تقويمي إذ طاعة عاصٍ عصيانُ
لو فينا من قال الصدِّيقَ فرد.. وكنا من كانوا
سيهاجرُ يومًا (عمارٌ) و(بلالُ) ويصدح (حسانُ)
وسيرجف (سعدٌ) أو (عمروٌ) سيعيدُ القدسَ الرحمنُ
وتعودُ حياتك هانئةً.. فيها تخضرُّ الوديانُ
وتصيرُ حقائقَ لا كلمًا:

(١)- ديوان (اللهم هل غنيتُ)، صـ ٥٧.
(٢)- ديوان (بكت سندريلا..)، صـ ٣٧.

الحـــــــــــب.. العلـــــــــــمُ.. الإيمـــــــــــانُ.

يدل هذا المقطع على نبوءة الشاعر بمستقبل أفضل لأبناء الأمة، مستقبل يسود فيه الحب والعلم والإيمان، وفي هذه النبوءة وظف عصام الغزالي شخصيات كثيرة عن طريق آلية العَلَم؛ استثارة للنفوس، وتحفيزًا للهمم، وتذكرة بماضيهم العريق، وتاريخهم المشرق.

ثالثاً: الدافع الاجتماعي

لا ينفك الأدب عن المجتمع؛ إذ إن أدب أي أمة من الأمم يمثل صورة لواقعها الاجتماعي، ويعبر عن آلامها وأحلامها، ويجسد مآثرها ومفاخرها، ويصور ما يعتري المجتمع من نقص، وما يكتنفه من ملابسات، والشاعر العربي المعاصر قد يشتد عليه واقعه الاجتماعي، ويكبت حريته، ويفرض عليه ستارًا من الصمت والكتمان، والأديب الجيد هو الذي لا يصطدم بمجتمعه، ولا يقف في وجهه، وقد لجأ الشعراء إلى حيلة فنية لإبراز السلبيات، وكشف الانحرافات؛ فاتكأوا على التراث وما فيه من قيم وشخصيات، واستطاعوا من خلال عناصره "أن يعبروا عن آرائهم وأفكارهم، بطريقة فنية غير مباشرة، لا تعرضهم لبطش أو مساءلة"(١).

وقد يلجأ الشاعر إلى التراث أيضًا للتعبير عن حالة وجدانية أرقت قلبه، وأقضت مضجعه، فيصور ما في نفسه بطريقة التوظيف المباشر للعنصر التراثي؛ تدعيمًا لرأيه، وإثراء لنصه، وعلى هذا النمط جاءت بعض التجارب في شعر عصام الغزالي؛ حيث وظف قصة قرآنية في تجربة عاطفية؛ لإثبات أن إرادة الله لا تتبدل، ومشئيته -سبحانه- لا تتغير، وذلك في قصيدة (وردة

(١)- د/ علي عشري زايد (استدعاء الشخصيات التراثية...)، صـ ٣٣.

الصحراء)، التي جعلها معادلًا موضوعيًا لمحبوته؛ إذ جعل الوردة معادل المحبوبة، والصحراء معادل حياته، يقول فيها الشاعر: (١)

خِداعُ النفسِ في طبعِ النعامِ ونزفُ الجُرح في بَوحِ الحمام
مشيئة ربنا لا منها وقلبي دامعٌ رغم ابتسامي
وعذبَني اتهامُكِ لي بأني ظلمتُكِ، بينما الظلمُ اتهامي
أعزَّ عليكِ أنْ هَدْهَدْتُ قلبي بأبياتي وجرحُ القلب دامي؟!

المتأمل في ثنايا هذه القصيدة يجد أنها تجربة وجدانية؛ صور فيها الشاعر لواعج قلبه المليء بالحب والشوق، وكيف أن معيشته كالصحاري قاحلة، وأن حبيبته وردة في تلك الحياة الموحشة، تؤنس قلبه، وتعطر حياته، وإنسان كهذا لا شك يحتاج إلى الوصل، ويئن فؤاده من الهجر؛ لذلك يرسل بهذه الأبيات إلى محبوبته التي اتهمته بأنه ظلمها لمجرد أنه باح بما في صدره من هموم وأحزان، وعز عليها أن هدهد قلبه بأبيات تصور جرح قلبه الدامي، وهنا يظهر الاتجاه الديني لدى شاعرنا؛ حيث يدرك أن مشيئة الله فوق كل شيء، وإرادته لا يعلوها شيء، فيهرب من هذه الأحاسيس القاتلة، وتلك الآهات المؤلمة، ويلجأ إلى التراث عسى أن يجد فيه مسلاة لأشجانه، فيقول:(٢)

أقولُ معزيًا نفسي: تأملْ لعل الشمس من خلفِ الغمام
مشيئة ربنا، من فرَّ منها؟! ومن كتبَ الخطوط على الأنام؟!
مشيئة ربنا خرقُ السفينِ وحكمةُ ربنا قتلُ الغلام!
وما أنا ساخطٌ أنعى نصيبي ولا أنا مُفلِتٌ مني زمامي

(١)- ديوان (هوى الخمسين) صـ ٣٤.
(٢)- السابق صـ ٣٤- ٣٥.

لا يخفى على القارئ أن الشاعر في هذه الأبيات يوظف قصة من القرآن الكريم، وهي قصة خرق السفينة، وقتل الغلام، التي حدثت مع الخضر وموسى عليهما السلام، والتي ذكرتها بالتفصيل سورة الكهف، وقد وظف الشاعر هذه القصة من خلال عنصرين أساسيين فيها، وهما خرق السفينة، وقتل الغلام؛ وذلك إشارة إلى أن إرادة الله فوق كل شيء، وحكمته لا تعلوها حكمة، ولو كانت الأمور تقاس حسب الأهواء؛ ما أذن موسى -عليه السلام- للخضر أن يخرق السفينة أو يقتل الغلام، ولا شك أن هذه القصة قد وظفها الشاعر ليعزي نفسه أولًا، ويقوي نصه، ويعضد حجته ثانيًا، ويُلاحظ أن الشاعر فرّ من تلك الأحاسيس التي يشعر بها في مجتمعه، وهرب من هذا الواقع المؤلم إلى التراث الديني؛ ليجد فيه ما يسلي به نفسه، ويثري به نصه، ويقوي حجته، ويدعِّم رؤيته.

ومن التجارب الشعرية التي تجلى فيها إحساس الشاعر بآفات المجتمع وتمرده عليه قصيدته التي بعنوان (أحلام رمادية)، والتي لجأ فيها إلى التراث؛ هروبًا من الواقع المذري، وإسقاطًا على ما يراه من تناقضات وسلبيات، يقول فيها: (١)

هي الأحداثُ لم تبخل علينا ... بقتلِ الحلم في العصرِ الرمادي!
وسبعٌ بعدَ سبعٍ بعد سبع ... يدورُ السبع في السبع الشداد
يدور السبع كالثور المغمَّى ... لنزحِ الماء من بئرِ الفسادِ

يتحدث الشاعر في هذه القصيدة عن آفات المجتمع الذي يعيش فيه؛ ولذلك يتمرد على تلك الانحرافات، ويثور عليها بطريقة تتكثف بالإيماء والتلميح؛ حيث "يجانس بين السبع (الأسد)، الذي يُرمزُ به إلى الرجل

(١)- ديوان (هوى الخمسين) صـ ٦٤.

المسئول، الذي يعلق الناس عليه أملًا في الإنقاذ، وبين السبع الشداد التي واجهها يوسف عليه السلام في مصر عندما تولى خزائن الأرض، ووردت قصتها في القرآن الكريم، ثم هو ثانيًا يكرر كلمة (سبع)؛ ليؤكد على فقدان الأمل بعد الأمد، ويأس الناس من الإصلاح، ثم هو ثالثًا يقدم لنا السبع شبيها بالثور المغمى الذي ينزح فسادًا لا ينتهي ولا يزول!" (١)، وقد لجأ الشاعر إلى هذه القصة الدينية؛ ليهرب من واقع مؤلم، وليسقط القصة القرآنية على هذا على مجتمعه البعيد عن الإصلاح والأخلاق، وهذا ما أعطته لفظة (سبع) من دلالات تجاوزت حد التضمين أو التوظيف؛ لتعطي دلالة أعمق على ما في نفس الشاعر، وتعبيرًا أدق لما وصل إليه حال المجتمع.

وقد يرى الشاعر سلبية في مجتمعه، ومثلبة من مثالب الناس، فيحاول تصويرها، والتعبير عنها بطريقة رمزية إسقاطية؛ تحذيرًا لأبناء أمته، وتنبيهًا لهم على خطئهم؛ عسى أن يستجيبوا، هذه المقطوعة الشعرية بعنوان (وجوم الياسمينة)، وهي دفقة شعورية حوارية، استخدم فيها الشاعر الحكاية القصصية، متخذًا من التراث وسيلة فنية لإبراز السلبيات الاجتماعية، يقول عصام الغزالي: (٢)

(١) ينظر: د/ حلمي القاعود، (شعراء وقضايا...)، صـ ٩٢.

(٢)- ديوان (اللهم هل غنيت)، صـ ٣٣.

أتيتُ القصرَ من أقصى المدينة ... أسائلُ: أين ربَّتُه الحزينةْ؟
طرقتُ الباب فانفرجتْ ستورٌ ... وأشرقَ وجهُها نُبلًا وزينةْ
وقالت من عِلٍ: نبّئْ صغاري: ... سَيَدْهَمُ أرضَهم شوكُ الضغينةْ
فقد ساءتْ نواياها جميعًا ... وقلَّتْ فيهمُ النفسُ الأمينةْ
كأنِّيْ لستُ أمُّهمُو فكلٌّ ... يحاولُ نهبَ جوهرةٍ ثمينةْ
تبارَوا في العقوق فأورثوني ... سكونًا.. ليس من جنس السكيمةْ
إذا الطوفانُ عمَّ فهل سينجو ... من الركاب مَن خَرَق السفينة؟!

في هذه الأبيات يتحدث الشاعر بطريقة رمزية إيحائية عن بعض آفات المجتمع، وهي آفة الحقد والضغينة التي ذاعت بين الناس وانتشرت، فيقول: أتيت القصر من أقصى المدينة، والقصر هو رمز للمكان المرموق في المجتمع، والمكانة السامقة بين الناس، والمدينة رمز للبيئة التي يعيش فيها الناس، أو للبلدة التي يحيون بها، جاء الشاعر ناصحًا أمينًا من أقصى المدينة، وكأنه الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى؛ لينذر أهل القرية من عاقبة قتل رسلهم، والذي جاء ذكرهم في سورة (يس)، قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾، يس: ٢٠.

جاء الشاعر من أقصى المدينة سائلًا عن ربة البيت، التي أصابها الحزن والهم؛ نتيجة آفات الناس وسلبياتهم، فلما طرق الباب؛ انفرجت ستور، وأشرق وجهها نبلًا وزينة، وربة البيت رمز للذين يهتمون بشئون الناس، ويعملون على رعاية مصالحهم، أو هي رمز للوطن الذي يحمي أبناءه، ويعمل على لم شملهم.

ثم تقول وهي مشرقة الوجه وضاءة المحيا: نبئ صغاري أن أرضهم سيخيم عليها الضغينة، ويسيطر عليهم الحقد، وتعم بينهم الكراهية؛ وهذا كله نتيجة لسوء نواياهم، وانعدام الأمانة بينهم، وقلة البركة فيهم، وكثرة الكذب لديهم، تسوء أفعالهم، وتكثر

خطاياهم، ويزداد عقوقهم، كأني لستُ أمهم، كلٌّ منهم يحاول أن يأخذ ما يقع بين يديه ولا يبالي... وإذا عمَّ الطوفان؛ فلن ينجو أحد، ولن يُتثنى من العذاب أحد..!

وفي هذا السياق المأساوي، والرد القاسي من تلك الأم المهمومة بواقع أبنائها يستخدم الشاعر نصًا تراثيًا؛ لإسقاطه على هذا الواقع الاجتماعي المأساوي، وهذا النص هو حديث نبوي شريف، يحذر فيه النبي صلى الله عليه وسلم من السكوت على الفواحش، والرضا بانتشار الآفات، يقول عليه الصلاة والسلام: {مَثَلُ القائِمِ علَى حُدُودِ اللَّـهِ والواقِعِ فيها، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا علَى سَفِينَةٍ، فأصابَ بَعْضُهُمْ أعْلاها وبَعْضُهُمْ أسْفَلَها، فَكانَ الَّذِينَ في أسْفَلِها إذا اسْتَقَوْا مِنَ الماءِ مَرُّوا علَى مَن فَوْقَهُمْ، فقالوا: لو أنَّا خَرَقْنا في نَصِيبِنا خَرْقًا ولَمْ نُؤْذِ مَن فَوْقَنا، فإنْ يَتْرُكُوهُمْ وما أرادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وإنْ أخَذُوا علَى أيْدِيهِمْ نَجَوْا، ونَجَوْا جَمِيعًا}[1]، وقد اقتبس الشاعر من هذا الحديث ما يقوي التجربة، ويعمق الصورة؛ ذلك أن المجتمع الذي يخلو من الناصحين والمصلحين مجتمع مصيره سيء، وعاقبته وخيمة، ونهايته مؤلمة، والمجتمعات البشرية مصيرها ومآلها في النهاية مشترك، هلاكها يعم الجميع، ونجاتها للجميع أيضًا، والضرر والنفع يصيب الصالح وغيره.

وهذه حقيقة لا ينكرها أحد، صلاح المجتمعات يعم نفعه على كل الناس، وفسادها يضرُّ الجميع، ولا يستثني أحدًا، ولما كان الشاعر يعلم صدق الحقيقة التي أشارت إليها ربة البيت؛ نراه يختم نصه بهذه الدفقة الشعورية الحزينة فيقول: [2]

وغـــاب الوجـــهُ عـــن عينـــي رويـــدًا وحلَّـــتْ لحظـــةُ الصـــمتْ المبينـــةْ!
وأســـــدلتِ الســـــتارةُ فـــــاعترتني هـــــومٌ مـــــن وجـــــوم الياســـــمينةْ

---

(١) صحيح الإمام البخاري، كتاب الشركة، باب: هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، عن النعمان بن بشير، حديث رقم: ٢٣٦١.

(٢)- ديوان (اللهم هل غنيت) صـ ٣٣.

وســـرتُ أدُقُّ فـــي الأســـفلتِ كعبـــي وإحساســـي: غريـــبٌ فـــي المدينـــةْ

ومن هنا استطاع الغزالي أن يأخذ من تراثه ما يقوِّي تجربته، ويعضِّد رؤيته، ويعمِّق شعوره؛ حيث عبَّر عن سلبيات الناس، وآفات المجتمع بما لا يدع مجالًا للصدام مع الواقع، متخذًا من التراث وسيلة للتعبير عن قضيته التي يتبناها، وهمه الذي يعانيه ويكابد آلامه، وبذلك يكون العامل الاجتماعي دافعًا أساسيًا من دواع توظيف التراث واستدعائه.

الخاتمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وأصحابه ومن اتبع هداه، وبعد.

فبعد هذه الرحلة الشائقة، والجولة الرائقة في تجارب عصام الغزالي الشعرية، يمكنني أن أسجل بعض النتائج التي توصلت إليها، ويمكن إيجازها في النقاط الآتية:

أولًا: عاش عصام الغزالي متأثرًا بواقع أمته، يعبر عنها، ويصور آلامها، ويجسد آملاها، ويجسد مشاعره في دفقات شعورية، وتجارب إبداعية بطريقة رمزية وإيحائية، بعيدة عن الخطاب التقريري، والتعبير المباشر.

ثانيًا: تعددت أنماط التراث في شعر عصام الغزالي؛ وهذا يدل على شدة تعلقه بماضي أمته وحاضرها، وكثرة اطلاعه على تاريخها المشرق، وماضيها العريق، يأخذ من تراثه ما يناسب واقعه، ويقتبس من نصوص هذا التراث ما يقوي التجربة المعاصرة ويعمقها ويثريها.

ثالثًا: كان للقرآن الكريم والحديث الشريف حضور واضح في تجارب الشاعر؛ حيث أخذ من مفرداته وتراكيبه وصوره ومضامينه ما يؤيد وجهته، ويقوي حجته، واستطاع أن يوظف من نصوص التراث الديني ما يخدم الغرض الشعري، ويثري التجربة الشعورية، ويعمق الفكرة التي يصورها ويعبر عنها.

رابعًا: وظَّف الغزالي أيضًا النصوص التاريخية، والموروث التاريخ؛ بما فيه من طاقات إيجابية، وشخصيات تراثية، أسطقها على واقعه، واستنهض بها عزائم أبناء أمته، ومزج بين إيجابيات الماضي المشرق وسلبيات الحاضر المحزن.

خامسًا: التراث الأدبي يعدُّ مصدرًا مهمًا للشعراء والأدباء، يقتبسون منه، ويستلهمون ما فيه من قيم، ويوظفون ما فيه من تجارب، وقد وظف عصام

الغزالي من هذا الموروث ما يتفق أو يختلف مع الواقع المعاصر والتجربة الحديثة، إما للإسقاط على شيء ما، أو للتهكم من قضية معينة، وتلك موهبة فنية لا تتأتى إلا لشاعر موهوب، يأخذ من تجارب غيره ما يثري تجربته ويعمقها.

سادسًا: توظيف التراث أمر واضح وبارز في تجارب الشعراء المعاصرين، ولا سيما عصام الغزالي، وهذه التقنية الأسلوبية لا تأتي اعتباطًا، وإنما يكون لها دافع يدفع الأديب إليها، وسبب يُلجئ الشاعر إليها، وهذه الدوافع كثيرة، من أهمها ما يأتي:

الدافع الفني: وهو الذي يدفع الشاعر إلى الاقتباس من غيره، سواء كانت نصوصًا دينية أو تاريخية أو أدبية؛ وذلك لغرض إضفاء الفن الجمالي على تجربته، إما بالإسقاط، أو المفارقة، أو التقنع بشخصية غيره، أو استلهام نصوص تراثية لما فيها من معادل موضوعي للتجربة الجديدة.

الدافع النفسي: وهو شعور الأديب بالاغتراب الروحي، أو القلق النفسي، أو التشاؤم، أو التفاؤل؛ نتيجة ما يراه في مجتمعه من سلبيات وآفات؛ فيلجأ حينها إلى تراثه؛ هروبًا من هذا الواقع، وفرارًا من ذلك الإحساس المؤرق، والشعور المحزن، أو بعثًا للهمم، واستهاضًا للعزائم.

الدافع الاجتماعي: ويتجلى هذا الدافع في رؤية الشاعر سلبياتٍ اجتماعية، أو تناقضات ومفارقات بين الناس؛ فيلجأ إلى التراث يأخذ منه ما يتفق عليه الجميع؛ منعًا للصدام مع المجتمع، أو الوقوف ضد الناس؛ لذلك يتكئ على أرضية صلبة لا يختلف عليها أحد، وهي النماذج التراثية بما فيها من قيم فنية، وتجارب حية.

سابعًا: ولعل الجديد الذي أضافته هذه الدراسة –للبحث النقدي والأدبي– يكمن في استخراج النماذج الشعرية، والشواهد الإبداعية في شعر عصام الغزالي،

وكيفية توظيف التراث –بما فيه من قيم جمالية وفنية– في تجارب معاصرة، وإسقاط الأحداث التراثية، والشخصيات التاريخية، والنصوص القرآنية والنبوية، على الواقع المعاش، وتلك سمة فنية لا تتأتى إلا لشاعر متمكن من إبداعه، وأديب يمتلك أدوات الفن، ويستطيع أن يأخذ من ماضيه ما يثري حاضره، ويعمق تجاربه.

ثامنًا: (توصية البحث) ترك عصام الغزالي –رحمه الله– تراثًا شعريًا وفيرًا، يتسم في أغلبه بالرمزية والتلميح، وينأى عن المباشرة والتصريح، ولا شك أن شعرًا كهذا سيكون مليئًا بالظواهر النقدية، والصور الجمالية، التي تدعو الباحثين إلى استخراجها واستنتاج ما فيها من قيم فنية وتعبيرية، ومن هنا يمكنني أن أقترح على الباحثين موضوعاتٍ جديدةً في شعر الغزالي، ومنها على سبيل المثال: الإسقاط في تجارب عصام الغزالي الشعرية، شعر عصام الغزالي دراسة حجاجية، الرمز في شعر عصام الغزالي عن الوطن دراسة نقدية تحليلية، شعر عصام الغزالي دراسة أسلوبية فنية.

المصادر والمراجع

أولًا: المصادر

١. الإنسان والحرمان.
٢. أهددكم بالسكوت.
٣. بكت سندريلا وقالت نهى.
٤. دمع في رمال.
٥. الشعر وردُ حدائقي
٦. فستذكرون ما أقول لكم
٧. اللهم هل غنيت.
٨. لو نقرأ أحداق الناس.
٩. هوى الخمسين

ثانيًا: المراجع

١. إبراهيم الزرزموني (تأويل الخطاب الشعري: النظرية والتطبيق: محمد أحمد العزب نموذجًا)، مكتبة الآداب بالقاهرة، ط/١/ ٢٠١٠م.
٢. أبو السعود، (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣. أبو بكر الخوارزمي (الأمثال المولدة)، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٤٢٤هـ.
٤. أبو ذؤيب الهذلي (الديوان)، تحقيق د/ أنطونيوس بطرس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.
٥. أبو زيد القرشي (جمهرة أشعار العرب)، حققه وضبطه وزاد في شرحه: علي محمد البجادي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

٦. أحمد الزعبي (التناص نظريًا وتطبيقيًا مقدمة نظيرة تطبيقية للتناص في رواية: "رؤيا" لهاشم غرابية وقصيدة رواية القلب لإبراهيم نصر الله)، مؤسسة عمّان للنشر- عمّان ٢٠٠٠م.
٧. أحمد تيمور باشا، (الأمثال الشعبية)، مؤسسة هنداوي بالقاهرة، بدون تاريخ.
٨. الإمام أحمد بن حنبل (المسند).
٩. أماني سليمان داود (الأمثال العربية القديمة دراسة أسلوبية سردية حضارية)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.ط/١/ ٢٠٠٩م.
١٠. حسان بن ثابت الأنصاري (الديوان)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.
١١. حسن علي المخلف (توظيف التراث في المسرح دراسة تطبيقية في مسرح سعد الله ونوس)، دار الأوائل- دمشق، ٢٠٠٠م.
١٢. حلمي القاعود (شعراء وقضايا قراءة في الشعر العربي الحديث)، طبعة خاصة بالمؤلف، ٢٠٠٧م.
١٣. رجاء عيد (لغة الشعر العربي المعاصر: قراءة في الشعر العربي المعاصر)، منشأة المعارف- الإسكندرية، ط/١ بدون تاريخ.
١٤. صابر عبد الدايم (الحديث النبوي رؤية فنية جمالية)، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، بدون تاريخ.
١٥. عبد القادر رحيم (العنوان في النص الإبداعي أسميته وأنواعه) مجلة كلية الآداب للعلوم الإنسانية والاجتماعية، عدد ٢-٣.
١٦. عز الدين إسماعيل (الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية)، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط/٥/ ١٩٩٤م.
١٧. علي عشري زايد (عن بناء القصيدة العربية الحديث)، مكتبة الآداب-

القاهرة، ط/٥/٢٠٠٨م.
١٨. علي عشري زايد (عن بناء القصيدة العربية الحديثة)، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٧م.
١٩. فخر الدين الرازي (التفسير الكبير)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠هـ.
٢٠. قيس بن الملوح (الديوان)، دراسة وتعليق يسري عبد الغنب، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط/١/١٩٩٩م.
٢١. كامل سلمان الجبوري (معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى سنة ٢٠٠٢م)، دار الكتب العلمية– بيروت لبنان.
٢٢. مصطفى صادق الرافعي (تاريخ آداب العرب)، دار الكتاب العربي، بيروت.
٢٣. معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين.
٢٤. نبيلة إبراهيم (المفارقة)، مجلة فصول، عدد/ ٣، سبتمبر ١٩٨٧م.
٢٥. نوال مساعدة (البناء الفني في روايات مؤنس الرزاز)، دار الكرمل، عمّان، ٢٠٠٠م.
٢٦. هند سعيد سلطان (التناص التراثي في روايات غازي القصيبي دراسة نقدية تحليلية)، ط: جامعة الملك سعود– المملكة العربية السعودية ١٤٣٥هـ ٢٠١٤م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٨٨٣
تمهيد	٨٨٦
التعريف بالشاعر	٨٨٦
المبحث الأول:	٨٨٨
أنماط التراث في شعر عصام الغزالي	٨٨٨
أولاً: التراث الديني	٨٨٨
ثانياً: التراث التاريخي	٩٠٦
ثالثاً: التراث الأدبي	٩١٠
المبحث الثاني:	٩٢١
دوافع توظيف التراث في شعر عصام الغزالي	٩٢١
أولاً: الدافع الفني	٩٢١
ثانياً: الدافع النفسي	٩٢٨
ثالثاً: الدافع الاجتماعي	٩٣١

الخاتمة.....٩٣٨

المصادر والمراجع.....٩٤١

أولاً: المصادر.....٩٤١

ثانياً: المراجع.....٩٤١

فهرس الموضوعات.....٩٤٤